

# كتاب المهلال

## الحرية الحمراء

جهاد - بطولة - تضحية

تأليف

مبدي جمان



سلسلة شهرية  
تصدر عن دامر المهلال





# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »  
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٤٠ - ذو القعدة ١٣٧٣ - يوليو ١٩٥٤

No. 40 — July 1954

## مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب  
( المتديان سابقا ) القاهرة

## المكاتب

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب  
الليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ( ١٢ عددا ) - مصر والسودان  
٨٥ قرشا صاغا - سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا  
أو لبنانيا - الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قرون  
صاغا - في الأمريكتين ٥ دولارات - في سائر  
أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلن

# كتاب الهلال



اهداءات ٢٠٠٣

الفنان / إلهامي حسن

القاهر

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



# الحرية الحزبية

تأليف

عبدالله بن ماضي

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال



# اهداء

هذه أقاصيص مستوحاة من وثبات الشعوب والأفراد ،  
في جهادهم القومي ، وصراعهم الوطني ، من أجل الحرية  
والاستقلال والسيادة : حرية المواطن ، واستقلال الوطن ،  
وسيادة الأمة

ولهذا ، فأننى أهديها الى كل مظلوم ضيق الظالم عليه  
الخناق ، أو حط الاستعمار عليه بأثقاله ، فعمد الى الثورة  
ليعتق نفسه ، وحطم القيود ، وافتت من الأسر ، وبذل في  
سبيل الحرية العزيزة المهج الغالية والدماء الحمراء !

القاهرة

حبيب جاماتى





# مقدمة

قالوا : ضع « مقدمة » لهذا الكتاب  
فقلت : وهل الحرية في حاجة الى من يقدمها ؟  
ان خير ما يكتب في صدر هذه المجموعة من الأقايس  
الوطنية ، ما تغنى به السلف الصالح ، وسعى الخلف الأمين  
لتحقيقه

دعا المتنبي الى الجهاد فقال :  
عش عزيزا ، أو مت وأنت كريم  
بين طعن القنـسـا وخفق البنود  
واطلب العـز في اظى ، وذر الذل  
ولو كان في جنـسـان الخلود  
وأفرغ ابن الرومي حب الوطن في هذا البيت :  
ولى وطن آليت أن لا أبيعـه  
وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا

ووصف عبد المحسن الكاظمي الاحرار الثائرين فقال :  
وقفوا يهتفون للموت شوقا في ظلال الصسفاح والمران  
ومشوا مشية الأسود ظمءا لورود المنون دون الأمانى

لا تقسولوا نيل المرام محال . ان نيل المرام في الامكان !

واهـاب ابراهيم اليازجى بالعرب صائحا :

ننبهوا واستفيقوا ايها العرب

فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالآمال تخسـدكم

وانتم بين راحت الفئسا سلب

لا تبتغوا بالمنى فوزا لانفسكم

لا يصدق الفوز ما لم يصدق الطلب

وصاح بعده الامير شكيب ارسلان قائلا :

فدى لـحمانا كل من يمنع الحمى

ومن ليس يرضى حوضه متهدما

فما العيش الا ان نموت أعزة

وما الموت الا ان نعيش ونسلما

تجاهل اهل الغرب كل قضية

اذا لم يـجىء فيها الحسام مترجما !

واخيرا ، ان انشودة شوقى في الحرية لا تزال ترن في

الاذان :

وللاوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق

ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحق

ففى القتل لأجيال حياة . وفى الأسرى فدى لهم وعتق

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضـرجة يدق

رحم الله السلف الذى بدأ الجهاد ، وأخذ بيد الخلف الذى

يواصله !

# يحيى الوطن

في خلال الثورة المصرية على الانجليز،  
سنة ١٩١٩ ، لم يكن الصغار دون الكبار  
وفاء للوطن ، ولا اقل منهم سخاء في  
ميدان التضحية  
وهذه قصة بطل من اولئك الابطال  
الصغار



انهم عشرات .. انهم مئات .. انهم آلاف .. أولئك  
الابطال المجهولون الذين حصدتهم الرشاشات كالسنابل ،  
ومزقت الرماح والسيوف صدورهم ، وغاصت حوافر  
الخيال في فيض من دمائهم ، بين قهقهة الطفساء الظالمين ،  
وهتاف العزل المظلومين : أولئك يشتمون ويجدفون ،  
وهؤلاء يرددون انشودتهم العذبة : « يحيا الوطن ! »  
لقد تطايرت في الشوارع والميادين اشلاؤهم ، وغصت  
المقابر والحفر بجثثهم ، ودفن الكثيرون منهم دون ان يعرف  
أحد اسماءهم ، او ينبىء أهلهم بمصيرهم !

كان بينهم الصانع والعامل ، والخادم والعاطل ، والفلاح  
والمزارع ، والمتسول والبائع : فقد ادى كل مصرى في تلك  
الايام الرهيبة قسطه من الواجب ، وتحمل كل مصرى  
نصيبه من الجهاد ، وسكب كل مصرى نقطة من دمه الفائر  
على مذبح الوطن ، ولسان حالهم جميعا يقول : « نموت  
وتحيا مصر ! »

هذا ما حدث في سنة ١٩١٩ وفي السنوات التالية ...  
وهذا ما سوف يحدث في الغد كما حدث بالامس ، كلما  
جد الجد ، وتلبدت في سماء مصر الغيوم ، واحدقت بالوادي  
المبارك المخاطر ، وداهمت شماله او جنوبه الخطوب !



تناولت « أم سالم » الجنيحات الذهبية الثلاثة التي  
دفعتها اليها ، وحدقت فيها البصر مذهولة حائرة ، وتمتمت  
كلمة شكر لم أفهمها ، ثم رفعت عينيها فاذا بالدموع  
تفشاهما ..

وبعد برهة صمت قصير . . ادركت خلاله أن عواطف  
تباينة تتلاطم في صدر بائعة الفول ، قالت « أم سالم »  
لمهجة جعلتها العبرات خافتة متهدجة ، أن هذه « الفلوس »  
نغص عيشها ، وانها تؤثر عليها الفقر والفاقة ، بشرط  
أن يعود زوجها من غربته

اسم الزوج « محمود عبد الشافي » وقد ساقته السلطة  
لبريطانية العسكرية مع من ساقتهم من أبناء الريف المصري ،  
في خلال الحرب العالمية الأولى ، فالتحق بفرقة العمال التي  
أمنت وسائل النقل للجيش البريطاني ، وشقت له الطرقات  
وعبدتها ، ومدت له الخطوط الحديدية ، واهرقت من أجله  
عرق الجبين ممزوجا بالدماء !

عرفت الرجل سنة ١٩١٧ ، في جبال العقبة ووادي  
الأردن ، حيث كان هو وفريق من رفاقه يقومون بأعمالهم  
الشاقة ، وشكا المسكين بين يدي لأن مرضا قاتلا كان يسرى  
في جسمه وينخره شيئا فشيئا ، ولا سبيل إلى علاج  
ولا أمل في شفاء

جئت إلى مصر في صيف سنة ١٩١٨ ، في اجازة قصيرة  
مع لفيف من رجال الثورة العربية ، فكلفني صديقي « محمود  
عبد الشافي » بأن أبحث عن زوجته « أم سالم » ، وأسلمها  
ثلاثة جنيهات ذهبية اقتصدها الرجل من أجره اليومي ،  
وانبئها بأنه يسعى للعودة إلى مصر

وكانت الزوجة تقيم في بيت صغير في « الشرايبة » وتطوف  
شوارع غمرة والفجالة حاملة على رأسها وعاء كبيرا ، تنادي  
على بضاعتها بصوت رخيم يطرب له الناس ويقبلون على  
الشراء : « أبيض يا نابت ! »

بكت اذن « أم سالم » ، ووعدتها بأن أساعد زوجها في  
محاولته الحصول على اذن بالعودة إلى وطنه ، وان اطمئنه  
عليها وعلى ابنها سالم

لم أجد صديقى « محمود عبد الشافى » بين العمال  
المصريين عندما عدت الى الجبهة ، فسألت وبحثت حتى  
عرفت الحقيقة ، وما أبشعها !

قيل لى انه مات مقتولا ، وأن الذى قتله ضابط انجليزى  
أفرغ فى رأسه رصاصة من مسدسه ، لامتناع العامل عن  
مواصلة السير مع قافلة اخوانه ، بسبب مرضه وضعفه ،  
والضابط الذى قتله كان معروفا بين العمال بقسوته  
وشراسته ، وكانوا يطلقون عليه اسم « ابو حنة » لاعتقادهم  
انه يصبغ شعره الاحمر بالحناء

وكان رؤساؤه انفسهم من الانجليز يؤنبونه على شراسته  
ويدعونه الى معاملة مرؤوسيه بالحسنى ، ولكنه لا يصفى  
ولا يحسن ولا يعدل !

ولم يكن « محمود عبد الشافى » اول عامل قتله ذلك  
الجلف فى مضائق العقبة ووادى عربية وسهول الاردن ،  
فضلا عن المئات الذين فتكت بهم الامراض ، وقضى عليهم  
التعب والارهاق فى تلك الفيافي والقفار ، فألقيت جثثهم فى  
حفر الى جانب الطريق الذى كانت « فرقة العمال » تشقه  
للجيش الزاحف ، أن لم تكن قد ظلت فى العراء طعمسة  
للسور والضباع

وفى اواخر سنة ١٩١٨ ، قفلت راجعا الى مصر حيث  
استقر بى المقام ، فالفيت « أم سالم » على حالها : تطوف  
الاحياء وتنادى على فولها النابت ، والصبى يساعدها

ترددت فى اطلاعها على الحقيقة . ولكننى رأيت الا مناص  
من ذلك . فبكت المسكينة مرة اخرى ورفعت يديها الى  
السماء طالبة من الله الرحمن الرحيم ان يلهمها الصبر  
والسلوان ، وأن يمنع الفقيد فى العالم الآخر ما حرم من  
سعادة فى هذه الدنيا ، وينزل العقاب بالقوم الظالمين الذين  
سببوا شقاءه وموته !



وكان لام سالم أخ يدعى « أحمد موافى » ماتت زوجته ولم يرزق منها أبناء ، فأقام مع أخته واحتضن وحيدها

وما وضعت الحرب أوزارها ، حتى هبت على مصر رياح الثورة العاتية فزعزعت مركز القاصيين ، ودفعت بأبناء مصر الى ميدان الجهاد افرادا وجماعات ..

أوغر المستعمرون صدور المصريين بالظلم والارهاق ، فانفجرت فيها مراجل الحقد والغيظ ففاضت حماسة رائعة وشجاعة فائقة . ورفع سعد زغلول صوته مناديا بحق مصر فى الحرية والاستقلال والسيادة ، فارتفعت معه أصوات الملايين . ومشى فمشى مصر فى أثره ، وملاً أجواء المدن والقرى والمزارع هدير الشعب الغاصب الثائر : « يحيا الوطن ! »

ونزل « أحمد موافى » الى الشارع مع من نزل اليه من رجال الحي وشبابه ، وانطلق بعضهم الى الاقاليم يشدون أزر الثائرين فيها ، أو يدعونهم الى نجدة اخوانهم فى قلب العاصمة الهائجة !

وعمد الانجليز الى الحديد والنار ، ليخنقوا الثورة فى مهدها ، ويلقوا الرعب فى النفوس على أمل أن يخلد الناس الى السكينة . وهذا شأن الظالم مع المظلوم ، وغاصب الحق مع صاحب الحق المفصوب فى كل آن ومكان ...

وفى ٨ مايو سنة ١٩١٩ ، اعتقلت السلطة البريطانية سعد زغلول وأربعة من صحابه ، وارسلتهم الى المنفى بجزيرة مالطة ، ظنا منها أن الشعب سيرتفع ويرتجف ويهدأ ، عندما يرى أن يد الاستعمار القوية قد بطشت بالقائد وطوحت بالرؤوس ...

لكن النتيجة كانت غير ما حسب المستعمرون فان بطش اليد القوية زاد الشعب إيمانا بقضيته ، والمصاناة فى المطالبة بحقه ...

وتعددت المظاهرات ، وتوالت المصادمات بين المتظاهرين  
والجند البريطانى الشاكي السلاح ، وفى احدى تلك المظاهرات؛  
فى شهر يونية سنة ١٩١٩ ، سقط احمد موافى صريعا  
برصاصة مسدس ، أطلقها عليه ضابط انجليزى فى محطة  
القاهرة ...

وبقيت ام سالم وحيدة بلا عائل ولا معين ، فضمت ابنها  
الى صدرها مترحمة على الفقيد الذى قتلها الانجليز :  
الزوج فى جبال الاردن ، والاخ فى مدينة القاهرة ..

وبكى معها اليتيم سالم ، ولكنه شعر فجأة بأنه لم يعد  
طفلا بل اصبح رجلا قبل الاوان ، فطبع قبلة على جبين امه،  
ورفع يده الى السماء واقسم قائلا انه سيضمن لها الرزق  
وينتقم لابيهِ وخاله ...

كان شهر ابريل سنة ١٩٢١ مطبوعا بطابع الخلود فى تاريخ  
مصر . ففى ذلك الشهر الميمون عاد سعد الى الوطن بعد  
ان فك اسره واقام مع رفاقه مدة من الزمن فى عاصمة  
الانجليز يفاوضونهم فى قضية مصر . ولكن الانجليز ظلوا  
متعنتين مكابرين ، ورجع الاسد المصرى الى العرين داعيا  
أشباله الى مواصلة الكفاح

وقد استقبلت مصر زعيمها بمظاهر الفرح ، وهرع سكان  
القرى والضواحي الى القاهرة ليشاركوا سكانها الهتاف  
والدعاء ، وكانت ام سالم مع اخواتها تصفق وتغنى : « يامحنى  
ديل العصفورة ، باشواتنا جايه منصوره ! » وكان سالم  
الصغير مع فتيان الحى يرقص ويهزج ويصفى الى الخطباء،  
ويحاول ان يتفهم معنى الكلمات التى كانوا يتغنون بها  
« الوطن - الاستقلال - الحقوق - نموت وتحيا مصر ! »

مضى الانجليز فى طغيانهم ومضى المصريون فى جهادهم  
وفى يوم من ايام مايو سنة ١٩٢١ ، بينما المظاهرات تعم  
مدن القطر وقرأه ، صدرت الاوامر الى الجيش البريطانى،

بالنزول الى شوارع العاصمة واحتلالها  
وخرج سالم بن محمود مع رفاقه في مظاهرة بريئة في  
« شارع عباس » . وشاءت المصادفات ان تمر في تلك  
اللحظة كوكبة من الفرسان الانجليز في طريقهم الى قلب  
المدينة ، فأغار هؤلاء الابطال على الفتيان الصغار بخيولهم  
وسيوفهم ، وتفرقت المظاهرة في الحواري والازقة ، غير ان  
بعض الفتيان كانوا ابعد من رفاقهم جراءة ، فظلوا متربصين  
وراء الجدران يقذفون الجند بالحجارة . وتسلق سالم  
شجرة على رصيف الشارع ، واختار ضابطا من ضباط  
الكوكبة ، وقذفه بحجر وهو يصيح : « أبويا فين ياجونى ؟  
خالى فين ياجونى ! » واصاب الحجر الضابط ، وثار ثائر  
رفاقه فالتفتوا الى مصدر الصوت ، وما هي غير دقائق حتى  
كان الصبى الجريء قد هوى من شجرته كالعصفور ، وقد  
مزقت السيوف جسمه

حدث هذا على مقربة من منزلى ، وقد اسرعت الى مكان  
الحادثة مع لفيف من سكان الحي ، ورأيت الصبى يحمله  
رفاقه ويبتعدون به ، ورأيت الفرسان الانجليز يحيطون  
بضابطهم ، ثم ينقلونه في سيارة عائدين الى الثكنات . . .  
وكانت نظرة واحدة الى الضابط كافية لكى أعرفه ،  
فقلت لرفاقي : « لقد مات سالم ولكنه انتقم لابيئه  
من قاتله ! »

نعم ، لم يكن ذلك الضابط القليل غير ذلك العاتى الذى  
قتل محمود عبد الشافى ! فقد شاءت الاقدار ان ينقل أبو  
حنة من ميدان القتال الى مصر حيث قاد الفرسان ضد  
الثائرين المصريين ، فقتله ابن ضحيته ، سالم محمود !



في سنة ١٩٢٣ ، كانت ام سالم لا تزال على حالها ، تطوف  
الاحياء وتنادى على فولها النابت . . .



ولكن الحزن هد بنياتها ، واحنى ظهرها ، واخفت صوتها  
واطفاً بريق عينيها

ولم اعد اذكر بآية مناسبة رويت قصتها لمرقص باشا  
حنا ، عضو الوفد المصرى رحمه الله ، فأخذنى بيدي وذهبت  
معه الى بيت الامة حيث طلب منى أن أعيد القصة على  
مسامع سعد ، ففعلت . وكان الزعيم الكبير يدون حوالات  
البطولة الرائعة التى امتازت بها تلك الثورة الوطنية المجيدة ،  
فطلب أن نجيئه بالمرأة أم البطل سالم ، وأبى إلا أن يهنئها  
بشجاعة ابنها ، ويعزيها على فقدته ، ويقرر لها معاشاً ظلت  
المرأة تتقاضاه من أسرة سعد حتى موتها ، فى شهر مارس  
سنة ١٩٢٧ ، أى خمسة شهور قبل وفاة الزعيم الخالد . .



هذه قصة اسرة مصرية من صميم الشعب . وما أكثر  
مثيلاتها بين الاسر المصرية ، التى جاد افسرادها بالمهج  
والارواح فماتوا لكى يحيا الوطن !

# ابن البواب

« في بطولة الصغار روعة لا تعادلها  
روعة البطولة عند الكبار ! »  
فولتير

هذه وريقات انتزعت من مذكرات — قليلة ويا للأسف — دونتها حسب الظروف والاحوال ، في أثناء الثورة الرائعة التي اندلعت السنة نيرانها في مصر ، في سنة ١٩١٩ ، وما عمت ان امتدت في جميع انحاء القطر

فلا يبحث القارئ فيها عن شيء آخر غير ما يدون عادة في مثل هذه المذكرات فقد أبيت الا ان أقدمها له كما دونتها في حينها دون ان ادخل عليها تعديلا

أردت ان اتحدث هنا عن « بطل » فلم ابحت عنه في سجلات التاريخ ، ولم استرشد في بحثي بالحوادث الخطيرة التي وقعت في العصور الخوالي . فان أعمال البطولة الحقبة كثيرة في تاريخ مصر الحديث — بل في تاريخها الحاضر الذي لم تطو صفحاته بعد ولم يجف المداد الذي كتبت به . وكيف يجف ذلك المداد وهو دم احمر سال ولا يزال يسيل على جنبات مصر ، ويروى شجرة الحورية التي نبتت أغصانها واورقت ؟



٨ مارس ١٩١٩ — اليوم اعتقل سعد زغلول باشا، ومحمد محمود باشا ، ومحمد الباسل باشا، واسماعيل صدقي باشا، وارسلوا الى بور سعيد ولا يعلم احد الى اين ترسلهم السلطان الانجليزية من هناك . وقد اجتمع الوفد المصري برياسة وكيله شعراوي باشا ورفع احتجاجه على اعتقال الزعماء . ويقال انه ارسل خطابا بهذا المعنى الى صاحب العرش

٩ مارس ١٩١٩ — قامت اليوم في القاهرة مظاهرات



هائلة ابتدا بها الطلبة . ثم سارت الجموع في الشوارع  
تهتف بحياة مصر وحياة الزعماء المعتقلين

١١ مارس ١٩١٩ - كنت في شبرا وارادت ان اعود الى  
منزلى بشارع حمدى بالظاهر . ولكن الحوادث التى وقعت  
في الشوارع حالت دون وصولى فاضطرت الى المبيت عند  
احد الاصدقاء

وقد رأيت للمرة الاولى مصادمات بين المتظاهرين العزل  
من السلاح ، والجنود الانجليز المدججين به . فقد تصدى  
هؤلاء الجنود بدباباتهم ورشاشاتهم وبنادقهم وخوذاتهم  
وسيوفهم ، لجموع السائرين في مظاهرة رائعة، عند كوبرى  
شبرا ، ولا سلاح في ايديهم غير الرايات المصرية المختلفة  
الاحجام ، وغير حناجرهم يرسلون منها هتافا داويا ، يقابل  
رصاص الانجليز الداوى !

وقد سقط اثنان من الطلبة ، كانا يحملان علمين فتلقاهما  
رفاقهما بين ايديهم ، ونقلوهما الى مكان امين ، وتناول اثنان  
آخران العلمين ، واندفعا الى الامام والجماهير وراءهما  
صائحة : « فلتحى مصر ! ليحى سعد ! »



التقيت عند كوبرى شبرا بابن بواب المنزل الذى اسكن  
فيه بشارع حمدى واسم الصبى « مرسى »  
هو في نحو العاشرة من عمره ، امى مثل ابيه ولكنه ذكى  
جدا . وهو كتلة اعصاب ، وحركة دائمة ، لا يجلس في  
مكان ولا يهدأ لسانه في فمه

وكان مرسى قد اندفع مع رفاقه - وما اكثرهم - للاشتراك  
في المظاهرات . فالف ما يسميه « عسكر حمدى » نسبة  
الى الشارع الذى يقطن فيه مع ابيه ، وكان رفاقه يخضعون  
له وينفذون اوامره . ويخيل الى ان « مرسى » ولد لى

يكون زعيماً لا لكى يخلف أباه فى حراسة الابواب  
بشارع حمدى !

دار بينى وبينه هذا الحديث :

— بتعمل ايه هنا يا مرسى ؟

— والله يا بيه مشينا فى المظاهرة ويا الجماعة

« الجماعة » يعنى « عسكر حمدى » او جنود مرسى !

واقترب منى سائلاً :

— حضرتك رايح البيت يا بيه ؟

— ايوه يا مرسى

— آجى وياك !

— اهلا وسهلا !

ومشينا معا فى المظاهرة ، على ان نفترق عن الاخوان  
ونذهب فى سبيلنا عائدين الى شارع حمدى بعد انتهاء  
المظاهرة



لكننى لم اتمكن من السير مع مرسى الى النهاية . فقد  
فصلتنا الجموع الزاخرة ، وعبثا حاولت العثور عليه عندما  
عزمت على العودة الى البيت

وفى الساعة السادسة مساء كنت فى طريقى الى شارع  
حمدى واذا بى فى شارع الفجالة ، التقى بمرسى ومعه احد  
رفاقه او بالحرى احد جنوده من « عساكر حمدى »

وقبل ان اناديه ، وقبل ان يرانى ، وقع حادث فظيع  
يستحق ان يدون فى تاريخ مصر ، عندما تعود المياه الى  
مجاريها فى هذا القطر السعيد ، ويعمد المؤرخون الى تدوين  
الحوادث الرائعة التى كانت هذه البلاد ميدانا لها

وقع نظر مرسى ورفيقه على ثلاثة من الجنود البريطانيين

— او الاستراليين لا ادرى — وكانوا يمشون على رصيف الشارع وقد خلا الا من بعض المارة ونحن منهم ، وجعل هؤلاء الجنود يقهقهون ويغنون بلغة بلادهم ، ويتمايلون يمينا ويسارا كما يتمايل السكارى

وكانوا فى الواقع سكارى

ولكن هل اسكرتهم اقذاح الويسكى ام اسكرتهم الدماء التى اهرقوها فى ذلك اليوم ظلما وعدوانا ؟  
هذا ما يعرفونه دون سوهم !

راهم مرسى ورفيقه ، فلحقا بهم ، ومشيا وراءهم ، وخيل الى والى الصديق الذى كان معى ، ان مرسى يرسم مع رفيقه خطة جنونية ، وانه يريد الاعتداء على الجنود الثلاثة المسلحين !

ولم يخطيء ظنى ...

ولكن اعتداء مرسى ورفيقه كان من نوع غريب . فقد رأى الصبيان ان فى يد احد الجنود علما مصرىا يمزقه ويمسح به راسه ..

ثم تتابعت الحوادث بسرعة مذهشة ..

مسح الجندى حذاءه بالعلم ...

فوثب عليه رفيق مرسى من الورا ، ومر بجانبه كالسهم المارق ، وخطف العلم من يده ، وانطلق يعدو فى الشارع صائحا :

— بقى تمسح به جزمك يا ابن ...

فاطلق احد الجنود الثلاثة عليه رصاصة اصابتها فى فخذه فخر يتخبط بدمه

واسرع مرسى ...

وقبل ان يصل الجنود الى رفيقه الجريح وصل الى ناحيته ، واخذ العلم من يده وقد تخضب بالدم ، وفر

هاربا متواريا في الأزقة والحواري ، صائحا في وجوه الجنود :  
- والله ما أنت واخذه يا جوني !  
وانطلق الجنود وراءه ...  
واطلقوا النار مرتين ...



أسرعت مع صديقي الى الصبي الجريح فاذا بالجرح  
بسيط والحمد لله  
نقلنا المسكين الى جامع اولاد عنان ، بميدان باب الحديد،  
حيث اسعفه صاحب صيدلية هناك بالعلاج ، ريثما يحضر  
متطوعو الاسعاف  
ومرسي ؟

وجدته عند ابيه في مساء ذلك اليوم . ووجدت العلم  
المصري الصغير معه ، وعليه اثار الدماء التي تفجرت من  
جرح رفيقه الشجاع  
وكانت الكلمات الاولى التي قابلني بها صديقي الصغير ،  
ابن البواب الساذج :

- ما تفتكرش يا بيه اني هربت من العساكر لانى كنت  
خايف . لا ابدا . انا هربت علتان ما ياخدوش العلم تانى !



كان رفيق مرسي بطلا في هجومه على ذلك الجندي وهو  
يعلم الخطر الذي يستهدف له  
وكان مرسي بطلا في وثوبه على صديقه وانتزاع العلم من  
يده ، وفراره به في الأزقة  
وهرب هذا لم يكن في نظري اقل جدارة بالاجلال من  
هجوم ذاك

ففى الهجوم لآخذ العلم ، وفى الهروب به من وجوه أولئك  
الجنود ، بطولة يزيدآ روعة صدورها من صبيين صغيرين  
ساذجين !



لم أعر ف شيئآ عن مرسى منذ سنة ١٩٢٠  
ولم أعر ف شيئآ عن رفيقه الذى لم أدون اسمه فى  
مذكراتى ...

فهل يحسن أحدهما القراءة يا ترى ؟  
وهل يطلع أحدهما على هذه القصة التى أروىها كمآدونتها  
فى ذلك اليوم . فيتذكرنى ويزورنى ، ويمد الى يده لكى  
أصافحها ، وأصافح معها البطولة الساذجة - وهى أروع  
أنواع البطولة على الإطلاق ؟

أكثر الله من أمآل هؤلاء الأبطال ، يوم الكريهة والنزال !





# شتم النسيم في المعادى

« نحن ناثرون على الانجليز . فكل  
ضرر يلحقه مصرى بانجليزى انما هو  
مساهمة منه فى الثورة ! »  
ويضا واصف ( ١٩٢٠ )

كان القمر في تلك الليلة بدرا كاملا ، ونسيم البحر عليا وصفحة الماء ساكنة كالمرآة ، ساطعة مثلها تحت الاشعة المنهالة عليها من الفضاء ... والبحر الاحمر عادة هائج متلاطم الامواج متتابع العواصف ، ولذلك فقد اغتنمنا الفرصة السانحة ، صديقي البصري العراقي ، وانا ، فجلسنا على مقعدين مستطيلين ، في مؤخرة الباخرة ، نتجاذب اطراف الحديث ونتبادل الذكريات ، تاركين انظارنا تسبح تارة مع البدر في كبد السماء ، وتارة مع الاسماك الطائرة على سطح الماء ...

وصديقي البصري جندي قديم عرفته محارباً في صفوف العرب الثائرين سنة ١٩١٧ ، ثم التقينا مرارا فيما بعد ، كانت احداها في خلال تلك الرحلة ، وعلى ظهر تلك الباخرة التي كان صديقي يعمل فيها كاتباً للحسابات ومندوباً لمخابرة مختلف الجهات في الموانئ التي تمر بها الباخرة ، بين الهند ولندن ...

وقال لي في تلك الليلة :

— بعد قليل سيجيئني الى هذا المكان بحار من بحارة هذه الباخرة ، لغرض يتعلق بالعمل ... ولهذا البحار قصة روى لي طرفاً منها وكنتم الباقي ... وأريد الليلة ان احمله على الافاضة في الكلام لان قصته تنطوي ، في اعتقادي ، على مأساة يهكم ككاتب ان تطلع عليها ... فرحبت بما وعدني به البصري . ولم يطل انتظاري ، فقد وافانا بحار في مطلع العقد الخامس من العمر ، ممتلىء الجسم ، يتمايل في مشيته ، وبعد اداء المهمة التي جاء من

اجلها هم بالانصراف ، فاستمهل صديقي ، وألح عليه بأن يروي قصته كاملة على مسمع مني ، قائلا له :  
— هذا كاتب وصحفي من مصر .. وهو يدون في جعبته ذكريات عن نفسه وعن الغير على السواء

وما كاد صديقي يفوه بهذه الكلمات حتى اقترب مني البحار ، وحذق في البصر ، ثم جلس على الأرض بين المقعدين ، واسند ظهره الى الحاجز الحديدى وقال :  
— سأقص عليك القصة بكاملها ، واذا أردت أن ترويها على الناس في مصر فافعل ... فقد مرت على هذه المأساة التي كنت أحد أبطالها في شبابي سنوات عديدة لعب خلالها الشيب في رأسى ، ومن الذكريات ما يحدث في النهاية انقباضا في الصدر ، ففي التخلص منها ترويح للنفس



واصفينا ، صديقي البصرى العراقى وانا ، الى ما رواه ذلك البحار الانجليزى في تلك الليلة القمرية :  
قبل أن اكون بحارا كنت جنديا في الجيش البريطانى .. واشتركت في معارك فلسطين في الحرب العالمية ، ولم اصب بسوء ، ثم نقلت الى مصر حيث كنت اقيم في احد المعسكرات في ضاحية المعادى على مسافة قريبة من القاهرة ، عندما نشبت في تلك البلاد ثورة عمتهامن شمالها الى جنوبها ، سنة ١٩١٩

واشتركت مع زملائي من الانجليز والسكوتلانديين وجنود المستعمرات في مقاومة الثورة ، وتشتيت المظاهرات ... وكانت الاوامر التي صدرت الينا صارمة حاسمة ، اذ كان علينا ان نقسو اشد القسوة على الثائرين والمتظاهرين ، وان نبطش بهم حيثما نجدهم ، ولا نتردد في استعمال السلاح واطلاق الرصاص  
وقد استمرت تلك الحركة المصرية بضع سنوات ،

لست في حاجة الى وصف ما حدث خلالها ، فأنتم تعرفانه  
احسن مما أعرفه ... ولكنني اشرت اليها لان المأساة  
التي ارويها لكم وقعت لي في اثناء تلك الفترة المضطربة  
من الزمن

كان ذلك في يوم عيد يسميه المصريون « شم النسيم »  
وهم يخرجون فيه أفراداً وجماعات طلباً للنزهة ، فرحين  
متهللين .. ولكن الاعياد كانت كثيبة في مصر خلال تلك  
الاضطرابات .. وقد صادف مرة أن منحت أجازة لقضاء  
يوم خارج المعسكر مع رفيق من رفاقي ، وكان ذلك اليوم هو  
يوم « شم النسيم » بالذات .. والحت علينا القيادة بأن لا نبتعد  
عن مدينة المعادي الصغيرة ، فامتثلنا للأمر ، ورحنا نطوف  
بين الحدائق في تلك الضاحية الجميلة ، وانتهى بنا المطاف  
الى شاطئ النيل

وعند الغروب ، لما كنا نهم - رفيقي وانا - بالعودة الى  
المعسكر خلف البيوت وبين تلال الرمال ، ابصرنا زورقا  
يقرب من الضفة ، وفيه فتاة وشاب ، امسكا معا بالمجاديف  
وتعانقا في آن واحد ، ولم يصعب علينا ، من اول نظرة ،  
ان ندرك غير مخطئين اننا امام عاشقين او خطيبين او  
عروسين

والتقت عيناى بعينى رفيقى ، فابتسم وابتسمت ،  
وفطن كل منا الى ابتسامة الآخر ومعناها ومقصدها  
وفي اقل من لمح البصر انتحينا ناحية ، خلف صخرة شاءت  
الصدف ان توجدنا في ذلك المكان ، ورحنا ننتظر ونرقب  
قفز الشاب الى الضفة وساعد صديقه على النزول  
من الزورق

واذا بنا فجأة ، وبدون سابق اتفاق بيننا ، نشب من  
مكمننا على العاشقين ، فامسك زميلي بالشاب ، وامسكت  
انا بالفتاة ... فاستغاث الاثنان ولكن بلا جدوى .. فقد



كان المكان مقفرا على الضفة وفي النهر . . . وقاوم الشاب  
محاولا الافلات وانتقاذا الفتاة ، ولكن رفيقى كان فارعا القامة  
معروفا بيننا بقوة وشدة بأسه ، فتمكن من توجيه ضربات  
متوالية بقبضة يده ادمت وجه المصرى وافقدته وعيه ،  
فجره صديقى من قدميه والقاءه فى النيل !

اما انا فقد فقدت صوابى فى تلك اللحظات كما فقد  
زميلى صوابه ، وكانت الفتاة تتلوى بين ذراعى وتواصل  
الصياح والاستغاثة ، فوضعت يدى اليسرى على فمها  
لاكتم صوتها ، وهصرت قامتها بيمينى على امل ان تغلب  
على مقاومتها فتسكت وترضع ، ولا شك فى اننى كنت ،  
فى تلك الساعة ، قد تجردت من كل عاطفة انسانية ،  
وتحولت الى حيوان يبغي المتعة باى ثمن . . . ورأيت زميلى  
عائدا الى وحالته مثل حالتى ، فقابلت شرر عينيه بشرر  
من عينى مثله ، وسال لعابى من فمى مثل لعابه ، واقفلت  
اصابع يدى على وجه الفتاة وضمتها بشدة فعصرتها  
عصرا ، وجريت بها فى اتجاه الصخرة

ولكن . . . ماخطوت بضع خطوات ، حتى شعرت بالجسم  
البض الذى كنت احتضنه بالرغم منه يتراخى بين ذراعى  
فتوقفت عن الجرى . . . ورفعت اصابعى عن الفم الصغير ،  
فاذا برأس الفتاة يميل الى الامام . . . واذا بيديها  
وقدميها . . . اعذرانى اذا وقفت عند هذا الحد من التفصيل  
فى الوصف . . . ويكفى ان تعلمنا ان الفتاة ماتت بين ذراعى  
ماتت لاننى اردت ان اكتم صوتها فكتمت انفاسها

وصحونا ، زميلى وانا ، من تلك الثورة البهيمية التى  
حولتنا الى ذئبين مسعورين ، وجعلتنا نزهق روحين فى  
دقائق معدودات !

ماذا نصنع بالجثة الهامدة التى لاحياة فيها ؟  
اتبعناها بالاولى فالتقيناهما فى النيل ، وانطلقنا نعدو

مبتعدين عن ضفة النهر ، متلفتين يمينا ويسارا ، وخيل  
الينا ان شخصا يقهقه ضاحكا بين شجيرات الذرة القائمة  
على حافة الطريق ، ولم يخطيء سمعنا ... فقد برز  
امامنا من الناحية الاخرى « ابراهيم الحاوى » فأدركنا انه  
هو باعث تلك القهقهة !

ويجب ان اخبركما الآن من هو ابراهيم الحاوى : هو  
شيخ من الاعراب المصريين ، كان يتردد على المعسكر  
ويعرفه الجنود ويسعون اليه ، لانه كان لطيف المعشر ،  
يخاطبنا بكلمات انجليزية عجيبة تثير الضحك ، ويعرض  
علينا العابه الكثيرة ، ومن بينها ترويض الحيات والثعابين  
ولهذا كان يعرف باسم « ابراهيم الحاوى » وكان دائما  
يقهقه فترن قهقهته بين خيام المعسكر مثل قرع الطبول  
ذلك هو ابراهيم الحاوى الذى التقينا به على مسافة  
خطوات من ضفة النهر حيث اقترفنا جريمتين ... فهل  
رأى شيئا ؟ وهل سمع شيئا ؟

حاولنا ان نستدرجه فى الحديث فخيل الينا انه لم يفتن  
الى المأساة ، واطمأن بالنا ، وواصلنا السير الى المعسكر ،  
فرافقنا « ابراهيم » ، ولكن ضحكاته كانت متواصلة وكان  
رنينها يبعث الرعب فى نفوسنا ، لانها لم تكن مثل ضحكاته  
السابقة !..

وأختفى الرجل بين تلال الرمل ..  
وفى اليوم التالى ، جاء الى المعسكر جريا على عادته ،  
وبيده زجاجة كبيرة ذات فوهة واسعة وغطاء من الزجاج  
أيضا ، وبها حيتان صغيرتان ، وقال انه جاء بهما هدية  
الينا ... وكثيرا ما كان « ابراهيم » يقدم للجنود أمثال  
هذه الهدايا من الحيات والثعابين والضفادع والسلاحف  
وغيرها من الحيوانات المألوفة فى مصر ، وقد تقبلنا هديته  
شاكرين واثقين من أن ثعابينه لا تؤذى حتى ولو لدغت  
حاملها

وغاب الحاوى عن انظارنا منسابا بين الخيام ، بعد ان  
ال لنا بلهجة لم ندرك معناها لاول وهلة : « انا مسافر  
الى البلد ... الوداع ! »

وبعد ان تناولنا الغداء فى ذلك اليوم جلسنا كعادتنا مع  
كيف من رفاقنا ، وجعل كل منا يروى كيف قضى يومه  
لسابق ، فى المعسكر او خارجه ، اما نحن فلم نشر طبعنا  
الى ما حدث لنا ، ولا الى العمل الاثيم الذى اقدمنا عليه ،  
بل ادعينا اننا كنا فى صحبة « ابراهيم الحاوى » وانه  
اهدانا حيتين صغيرتين جميلتين فى وعاء من زجاج  
ونفض رفيقى لساعته ، واسرع الى الخيمة ، وعاد  
بالوعاء حيث كانت الحيتان تتلملان فى مجالهما الضيق  
وصاح الزملاء : « اخرجهما لكى نجعلهما ترقصان على  
انغام الناي .. »

وكنت انا العازف على الناي ، تلك القصبة التى تخرج  
الحانا شجية ، والننى علمنى « ابراهيم الحاوى » كيف  
انفخ فيها لتلبى النداء وتطرب الانسان والحيوان على  
السواء

وكان الناي الذى عزفت به هدية منه ايضا . وقد  
ارسلت منه لحنا بعد لحن والرفاق يصفقون ، ثم اقترب  
صديقى ووضع الوعاء الزجاجى على الرمل امامى ، وسط  
تلك الحلقة من الجنود الذين تكاثر عددهم ، ورفع الغطاء  
ومال بالوعاء لكى تخرج منه الحيتان الحبستان  
ولسكنهما لم تخرجا منه منسابتين متماوجتين ، بل  
وثبتا وثبا ، منطلقتين كالسهم المارق ، وفى الوقت نفسه  
ارتفعت صيحة ، ثم صيحة ثانية ، وتوالت الصيحات وعم  
الهرج والمرج حلقة الجنود وقد نفروا طالبين النجاة  
فقد لدغتنى حية فى يدي اليسرى ، ولدغت الثانية  
رفيقى فى خده ، وانطلقتا على الرمل كأنهما تبحثان عن  
ضحايا اخرى !

لا اطليل عليكما اكثر مما اطلت .. فقد مات رفيقى  
من لدغة الحية بعد ساعة او اقل ، واسعفت انا بسرعة لان  
اللدغة كانت ييدى ، فبتر لى الجراح ذراعى اليسرى فى  
الحال ، وشاء الله ان ييقينى على قيد الحياة ... وهذه  
الذراع التى ترونها ذراع من الخشب !

وادركنا ان « ابراهيم الحاوى » قد رد الثار لاثنين من  
مواطنيه ، وانه رآنا بالامس نزهق روح الشاب وروح  
الفتاة على ضفة النهر ، فعمد الى معاقبتنا مستعيناً بالحيثين  
السامتين .. وادركنا ان قهقهته عندما التقينا به ، وعندما  
ودعنا فى المعسكر ، كانت للتعبير عن غيظه المكتوم ، وعن  
تصميمه على الثار للشابين من قاتليهما

وقد رويت الحادث لرؤسائى من الضباط كما وقع ،  
بعد ان عاودنى الاطمئنان على حياتى ، فقر رأيهم على  
التزام الصمت ... وهكذا ظلت جريمتنا المزدوجة مجهولة  
من الناس ، وظل انتقام الحاوى منى ومن زميلى سرا بيننا  
وبينه

ولم تطأ قدمى ارض مصر منذ ان غادرتها . وعندما  
ترسو الباخرة فى احد الموانئ المصرية فأننى لا انزل الى  
البر ، لاننى لن اعود حيا الى الباخرة اذا وطئت الارض التى  
عرفتنى مجرماً قاتلاً

والاعوام قد مرت ، والحوادث قد تتابعت ... ولكننى  
لازال الى الآن ارتعش كلما تذكرت ذلك اليوم المروع ،  
يوم « شم النسيم » فى المعادى ، الذى كنت سبياً فى تحويل  
افراحه الى اتراح ، بالنسبة الى اسرتين مصريتين ، أسرة  
شاب وفتاة خرجا للنزهة فكان خروجاً لا عودة بعده !

لقد قتلت جنوداً من الاعداء ، ولكننى لم اندم على  
ما فعلت ... اما قتل تلك الفتاة وذلك الشاب فانه جعلنى  
أعيش مع وخز الضمير الذى لا يفارقنى لابليل ولا بالنهار

بالرغم من ان الحاوى قد انتقم للقتيلين فمات احدقاتليهما  
وبقى الآخر مبتور الذراع ، الذراع اليسرى التى اخمدت  
بها انفاس الحسناء البريئة !. ولا تزال صورتها ماثلة امام  
عينى ، ولا تزال أيضا قهقهة الحاوى ترن فى أذنى !



سكت البحار .. وظللنا - رفيقى وانا - صامتين .. ثم  
نهض الرجل متثاقلا ، ورفع يده اليمنى الى جبهته بالتحية  
وانصرف ممسكا بها قبضة يسراه الخشبية ..  
ولم ينصرف وحده ، بل كان وخز الضمير بلا شك  
سائرا معه جنبا الى جنب

وتناولت من جيبى ورقة وقلما ، ودونت حديثه هذا  
على ضوء القمر ، بعد ان قلت لصديقى البصرى :  
- ما أكثر هذه المآسى الفردية ، المتفرعة من المأساة  
الكبرى : الاستعمار ! فان انتقام ذلك الحاوى المصرى  
لشباب وفتاة من مواطنيه ما هو الا جزء من النضال القائم  
بين المصريين افرادا وجماعات ، وبين الانجليز افرادا وجماعات  
أيضا ، فى سبيل الكرامة والحرية !





# علم .. وقلعة

في التاسع من شهر أغسطس ١٩٤٦  
رفع على قلعة القاهرة علم مصرى صنع  
لهذا الغرض ، فحل محل العلم البريطانى  
الذى ظل مرفوعا على هذه القلعة منذ  
أن دخلها الانجليز فى الخامس عشر من  
شهر سبتمبر ١٨٨٢

فى السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٢ ، وثب  
الجيش المصرى على أسوار عكاء المنبعة فاقتحمها بعد صراع  
عنيف ، ودخل المدينة من الثغرات التى أحدثتها قنابل مدافعه  
وكان رابع الداخلين إليها الجندى « طه الكفراوى » حامل  
العلم ، فتناوله من يده قائد المدفعية « سليم بك اوتزبير »  
وركزه فى أعلى البرج المشرف على الباب الشرقى

وفى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر من السنة ذاتها  
فى معركة قونية ، كان طه الكفراوى يحمل أيضا علما من  
الاعلام المطرزة المزركشة ، وقد عهد إليه فى استنهاض همة  
الفرسان من رجال البادية واستنفارهم ، فأصيب بخمسة  
جراح فى حومة القتال ، ولكنه ظل محافظا على علمه وتمكن  
من الإفلات من الأسر ، بمعونة شيخ بدوى زوجه ابنته فيما  
بعد . غير أن الجراح سببت له عاهة دائمة ، فارسل الى  
مصر حيث الحق بالحامية فى قلعة القاهرة ، وهكذا ظل  
الجندى الأعرج الشجاع يتولى العناية بالعلم المرفوع على  
ساريتها

أما العلمان ، علم عكاء وعلم قونية ، فقد ضما الى اعلام  
المعارك المحفوظة فى قاعة السلاح بالقلعة  
وراودت طه الكفراوى أمنية سعى الى تحقيقها حتى  
اجابه رؤساؤه الى طلبه ، وهو أن يكون ابنه الوحيد جنديا  
فى الجيش ، وان يحمل العلم فى طليعة الصفوف كما فعل  
أبوه من قبله



ارسل السلطان العثمانى عبد المجيد يستنجد بمصر

لما زحفت جيوش القيصر الروسى على الاستانة ، فانجدته مصر بحملة برية قوامها خمسة عشر الف مقاتل ، حملتها عمارة بحرية الى ضفاف البوسفور ، ثم الى ميادين القتال فى البلقان والقرم . وانحازت بريطانيا العظمى وفرنسا فى ذلك الصدام الى الدولة العثمانية ، خوفا من ان تسبقهما روسيا القيصرية الى التسلط على المضائق . . . وقد اشتركت الحملة المصرية فى جميع المعارك التى دارت رحاها فى تلك البقعة من الارض واستبسل رجالها فى القتال ، وكللت بسالتهم بالفار ، فكان النصر فى تلك الحرب حليف الجيوش العثمانية وحلفائها ، وابتعد الخطر عن الاستانة الى حين !

وفى شهر مارس سنة ١٨٥٦ ، ابهر الجنود المصريون عائدين الى وطنهم ، وكان بينهم احد حملة الاعلام فى ميادين « سيد الكفراوى » ابن طه الكفراوى ، حامل العلم فى حروب الشام ، وقد جرح فى حومة القتال مثل ابيه !

فقد سيد الكفراوى ذراعه اليمنى وعاد الى امه البدوية المتحضرة ، بذراع واحدة ، فاستقبلته ابنة الشيخ الذى انقذ اباه فى معركة قونية ، باطلاق الزغاريد وانشاد الاهازيج الحماسية ، كما كانت تفعل فى صباها وهى تجتاز الصحارى والقفار مع فرسان القبيلة ، طلبا لغزو او سميا وراء ثار !

وضمت اعلام البلقان والقرم المطبوعة بطابع المجد والفخر الى اعلام الشام والاناضول المظفرة فى قاعة السلاح بقلعة القاهرة

وختمت حياة سيد الكفراوى كجندى ، ولكنه الحق بالخدمة فى ثكنات القلعة ، فحل محل ابيه ، على ان يظل محتفظا بشو به العسكرية مثله ، ويموت حيث مات

وكما وعد طه الكفراوى بان يصبح ابنه جنديا ومن حملة الاعلام وبربوعده ، استجيب ايضا أمنية سيد الكفراوى

بان يصبح ابنه جنديا مثل ابيه وجده ، وحاملا للعلم مثلهما  
ولكن « حسن الكفراوى » ابن سيد الكفراوى ، كان فى ذلك  
الوقت طفلا فى الخامسة من العمر ، ماتت امه وهو فى المهد  
وتولت جدته تربيته ، ولم يتخذ ابوه زوجة اخرى



مرت ست وعشرون سنة ، كانت السنوات الاخيرة منها  
مفعمة بالمكائد الاوروبية المنصوبة لمصر ، وبالمطامع  
الاستعمارية الحائمة حولها . وفى سنة ١٨٨٢ ، غلت  
المراجل ، ثم انفجرت فجأة على اثر حادث تافه وقع فى  
الاسكندرية بين رجل مصرى يملك حمارا ورجل مالطى  
فى الحادى عشر من شهر يونيو ، فعمت القلاقل والاضطرابات  
واسرع الاسطول البريطانى الى الثغر ف ضرب قلاعه  
وتحصيناته بالمدافع ونزل الى البر جيش أعدته بريطانيا  
من قبل لغزو مصر !

واندفع الجيش المصرى بقيادة احمد عرابى وصحبه الى  
منطقة قناة السويس ، لصد الغزاة ومنعهم من الوصول  
الى القاهرة ، وكان الجندى حسن الكفراوى - احد حملة  
الاعلام فى الجيش - يقضى اجازة مرضية قصيرة فى كفر  
الدوار مسقط رأسه ، حيث تقيم زوجته واطفالها وسمع  
صوت الضمير يهيب به ان قم فواجبك العسكرى فى غير  
هذا المكان ، فقام بالرغم من مرضه الذى كان يقعه عن  
خوض غمار القتال . ولم يكن فى استطاعته ان يصل الى  
قلعة القاهرة حيث مقر فصيلته . وكان كثيرون من سكان  
المدن ومزارعى الأرياف ، يهرعون الى مراكز الحاميات  
المصرية ومعسكراتها ، عارضين أنفسهم للتطوع ، طالبين  
سلاحا للدفاع ، فقار فائر الحماسة فى صدر حسن الكفراوى  
فطلب من زوجته وجاراتها ان يصنعن له علما مصرىا، جعل



يطوف به في العزب والمزارع ، فجمع حوله طائفة من الشبان سار بهم جريا على الاقدام الى التل الكبير ، فبلغوها في الحادى عشر من سبتمبر والمركة تشرف على النهاية، وقد تفككت اوصال الجيش المصرى بفعل عوامل عديدة لم يكن الخلاف بين القواد وخيانة بعضهم اقلها شأنًا وراح كل من المحاربين يطلب لنفسه النجاة ، بعد ان سقط في الميدان من سقط وجرح من جرح

تفرق الشبان رفاق حسن الكفراوى ، ولكن الرجل ابى ان يمزق العلم او يلقيه من يده ، وقبضت له الصدفة جوادا هائما بين الرمال وقد سقط فارسه صريعا ، فامتطى حامل العلم صهوته ، وانطلق ينهب الارض نهبا في طريقه الى القاهرة ، فبلغ القلعة في اليوم التالى ، وقد التهب رأسه بالحمى وخارت قواه ، ولكنه تجلد حتى تمكن من الوصول الى قائده ورئيسه « الماظ رفعت » فى مقره داخل القلعة ، فالقى بالعلم بين يديه ، وقص عليه ما حدث له ولرفاقه ، ثم انتابته رعشة سقط معها على الارض فاقد الحياة !

فى الخامس عشر من شهر سبتمبر ١٨٨٢ ، دخل الجنود البريطانيون قلعة القاهرة ، وخرجت منها حاميتها المؤلفة من أربعة آلاف رجل ، ورفع على ساريتها العلم البريطانى حتى انزل عنها فى شهر يوليو ١٩٤٦ ليعود العلم المصرى الى مكانه

فى يوم الجمعة التاسع من شهر اغسطس ١٩٤٦ - الثانى عشر من شهر رمضان ١٣٦٥ - رفع علم صنع خصيصا لذلك اليوم المشهود ، على سارية تناطح الفضاء نصبت على قاعدة تذكارية ، وضع تصميمها المهندس سحاب الماظ ، حفيد الضابط الماظ رفعت ، الذى كان آخر من غادر القلعة من الضباط العظام ، فى يوم احتلالها المشؤوم سنة ١٨٨٢

هذه قصة الجد والاب والحفيد ، طه وسيد وحسن  
الكفراوى ، حملة الاعلام ، رواها لى شيخ العروبة احمد زكى  
باشا رحمه الله ، عن مذكرات محفوظة فى « المكتبة الزكية »  
التي تركها بعد موته هدية الى الامة المصرية

ومن يدري ؟ فقد يكون بين رجال الجيش المصرى الذى  
اعاد الى مصر كرامتها ، واحد او اكثر من احفاد حسن  
الكفراوى ، حامل العلم الذى صنعه ايدى الريفيات من  
نساء كفر الدوار

# احتلال وجلاء

في ٣١ مارس ١٩٤٧ تم جلاء الانجليز  
عن القاهرة والدلتا . وقبل ذلك التاريخ  
بمائة واربعين سنة ، حاول الانجليز  
احتلال مصر ولكنهم اكرهوا على الجلاء  
عنها ، في شهر مارس ايضا . ولكل  
اجل كتاب ، ولكل احتلال جلاء !

قضى الشيخ « طراف ابو غازى » ثلاثة ايام فى «رشيد» يقايض التجار على ماكان يحمله من صوف وسمن وزبدة، فعقد معهم بضع صفقات رابحة ، ثم اعتزم الرجوع فى اليوم التالى عائدا الى اهله وعشيرته

هو اعرابى من قبيلة « الحويطات » تزوج «صائبة» بنت الشيخ « حمود الفايز » من قبائل «ولد على » بالصحراء الغربية ، فرزق منها ثلاث بنات ، اكبرهن فى الخامسة عشرة واصغرهن فى العاشرة وكان يملك ماشية عديدة ينتقل بهامى بنى قومه فى حقول الوجه البحرى ومراعيه ، ويجنى من بيع لحومها واصوافها والبانها رباحا طائلة . وماكانت صفقة رشيد التى عقدها فى تلك الايام الثلاثة ، غير واحدة من عشرات الصفقات السنوية ، التى كان يعود بعدها الى قومه مثقلا بالهدايا ، عامر الجراب بالمال

لكن الاقدار شاءت الا يعود الشيخ الى قبيلته ،بعد تلك الرحلة الموفقة الى رشيد ، فقد افاق من نومه على اصوات المنادين ترتفع فى الحوارى والازقة ، منبئة بان الانجليز سيداهمون المدينة بين لحظة واخرى ، وبان الحاكم يدعو السكان الى التزام السكنىة ، والبقاء فى بيوتهم ، وعدم التعرض للغزاة القادمين ، وانتظار اوامر جديدة تصدر منه وتساءل الناس ماذا حدث ، ومن اين اتى اولئك الاجانب وكيف وصلوا الى مدينتهم فى غفلة من الحاميات المنتشرة على طول السواحل المصرية . وعلموا ان ماحدث امر فى غاية الخطر !

مات زعيما المماليك في مصر : عثمان البرديسي ومحمد  
الافى وخلا الميدان بموتهما لمحمد على فانصرف الى توحيد  
السلطة في يده ، وكانت اوروبا لمصر بالمرصاد . فجردت  
حكومة بريطانيا العظمى حملة قوامها سبعة الاف مقاتل  
لاحتلال وادى النيل . فوصلت الحملة بقيادة الجنرال « فريزر »  
امام ميناء الاسكندرية في السابع عشر من شهر مارس سنة  
١٨٠٧ ، ونزل الفاتحون في ضواحيها وضربوا عليها الحصار  
ثم اسرعوا في ارسال قوة الى مدينة « رشيد » لاحتلالها  
ايضا قبل ان تصل اليها النجدة من القاهرة ، وما دخل  
الانجليز المدينة حتى خيل اليهم انها خاوية ، خالية من  
الجند والسكان ، فانتشروا في جميع الجهات ، يغنون  
ويهتفون ، ويلقون سلاحهم جانبا مطمئنين مندهشين !  
لكن الحاكم الداهية - على بك السلانكلي - عرف كيف  
يوقعهم في الفخ الذي نصبه لهم !

وبينما هم في فرح ومرح وقد ظنوا انفسهم في مأمن من  
كل خطر ، اذا بسطوح المنازل ونوافذها تمطرهم وابلا من  
القذائف الفاتكة ، واذا بالابواب تنفتح على الحواري والازقة  
ويتدفق منها الى الخارج سيل من الجند والسكان والاعراب  
المسلحين ، فيأخذون الانجليز على غرة ، ويذبحونهم ذبح  
الانعام حتى ابادوهم عن آخرهم ، ثم يسوقون الاسرى  
ويرسلون رؤوس القتلى مع كوكبة من الفرسان الى القاهرة  
واستشهد في تلك المعركة التحريرية بضع عشرات من  
السكان والعربان ، بينهم الشيخ طراف ابو غازي الحويطاتي  
الذي ابى الا ان يساهم فيها بنصيب



بلغ خبر مصرع الشيخ مسامع زوجته وبناته فخرجن  
وقد حللن الشعور وخضبن الابدى والوجوه بالرماد ،  
وانتضين السيوف ورفعن العقائر صائحات : « بالثارات

العرب ! » وتجاوبت الاصوات هادرة متماوجة سابحة من مضرب الى مضرب ، ومن حى الى حى ، واقبل العربان من كل ناحية وصوب ، وقد لمعت في اكفهم النصال ، وغلت الدماء في عروقهم لهذا العدوان المزدوج الذى وقع على شيخ العشيرة ومرايع الحمى ، فالتفوا حول صائبة وبناتها ، ملين النداء ، مسارعين الى الفداء !



وكان جيش مصرى صغير قد اتجه مسرعا من القاهرة الى الساحل المصرى المهدد ، فانضم اليه فى الطريق كل قادر على حمل السلاح ، وكان الانجليز فى الوقت نفسه قد جردوا حملة اخرى غادرت الاسكندرية فى طريقها الى رشيد لمحو الهزيمة المنكرة ، فاذا هم يضيفون اليها هزيمة جديدة ! ففى الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، وهو اليوم الذى سلمت فيه الاسكندرية الى الجنرال « فريزر » وقع اصطدام بين الجيش المصرى والحملة الانجليزية بقيادة الجنرال « ستيوارت » على مقربة من رشيد ، فتراجع الانجليز متقهقرين الى « الحماد » حيث حاولوا الاعتصام فى التلال والصمود امام الجيش المصرى ، لكن المصريين لحقوا بهم الى ذلك الميدان ، حيث اشتبكت القوتان فى الثلاثين من شهر مارس فى عراك لم يدم طويلا ، فانسحب ستيوارت وجد فى السير نحو الاسكندرية طلبا للنجاة من مصر ادرى انه لن يختلف عن مصر الحملة السابقة !

وانطلق العربان فى اثر الجيش المنسحب تتقدمهم صائبة وبناتها ، طلبا لثار الشيخ القليل وانتقاما للحمى المستباح ، فتم لهم ما ارادوا ، فى اسرع مما كانوا يظنون ! اما الجيش المصرى فقد واصل الزحف الى الاسكندرية حيث امتنع الانجليز عن منازلته ، ودخلوا فى مفاوضات اسفرت عن جلائهم التام ، وبلا قيد ولا شرط !



# أربع رؤوس

في سنة ١٨٠٧ ، حاول الانجليز احتلال مصر ، فردهم المصريون على اعقابهم .  
وهذه قصة امرأة مصرية قتل الانجليز زوجها فثارت له بقتل أربعة من جنودهم!

ختم « على بك السلانكلى » حاكم مدينة « رشيد » حديثه مع سامعيه قائلا :

— لقد بسطت لكم الموقف على حقيقته . واعدود فألخصه لكم فى عبارات وجيزة : فالانجليز يحتلون مدينتنا منذ أمس . ولكن عددهم قليل بالنسبة الى عدد السكان . وفى وسعنا ، لو أخذناهم الليلة على غرة ، وفاجأناهم بهجوم لا ينتظرونه ولا يحسبون له حسابا ، ان نذبهم عن آخرهم او ان نطردهم من المدينة على الاقل . وقد أصدرت اوامرى الى الجنود الذين تحت امرتى ، بان يبدأوا اطلاق النار بعد غروب الشمس ، وجاءتنى نجدة من العربان لتشد ازر الجند . ولكنى فى حاجة الى مساعدتكم انتم يا ابناء رشيد . فهل تقسمون على الثورة فى وجه الفاصبين والتعاون مع الحامية فى طردهم ؟

فانطلقت من صدور الحاضرين همهمة ، هى مزيج من الغضب والرغبة فى الثأر ، وتتابعتم الردود بالايجاب على سؤال الحاكم : « نعم ، نعم ، نحن مستعدون للثورة ! »

ونفض من بين الحاضرين شخص ملثم كشف عن وجهه فاذا به امرأة فارعة القامة حادة النظرات يتطاير الشر من عينيها . وبهت الحاضرون لحظة ، ثم اصغوا الى المرأة وهى تخاطبهم قائلة :

— يا مواطنى الاعزاء . . قديعرفنى بعضكم . . ولكنى مجهولة من معظمكم ، لاننى قروية زوجة فلاح قضى حياته فى الحقول والمزارع . . انا « نفيسة » زوجة « على عامر » الذى اغتاله الجنود الانجليز منذ يومين ، وهم فى طريقهم

الى هذه المدينة ، وقطعوا رأسه وحملوها على سنان رمح  
وقد رآها الكثيرون من السكان عندما طاف بها أولئك  
العلوج الاجلاف في الشوارع والازقة !

وسكتت المرأة هنيهة ، وحبست دمعها قبل ان يطفر  
من العينين ، ثم استطردت تقول وسط السكوت الذى  
عم المجلس :

— ان نفيسة زوجة الفلاح القليل ، وابنها « احمد  
على » البالغ من العمر عشرين عاما ، وابنتيها « حميدة »  
و « فريدة » — وهما دون الثامنة عشرة — انا جميعا ،  
ايها الحاكم ، وايها المواطنين ، نعد انفسنا جنودا من جنود  
الثورة ، ونرجو ان تفعل كل اسرة في مدينة رشيد مثلما  
نفعل نحن . . وقد اقسمنا ، انا وابنائى ، على ان لاندوق  
الراحة ، ولا نستلقى على فراش ، قبل ان يقتل كل منا  
واحدا من الاعداء ، ويرفع رأسه على سنان رمح ، كما فعل  
الاعداء بقتيلنا !

فنهض على بك السلانكلى من مقعده ، واقترب من  
المرأة باسطة يده لمصافحتها ، قائلا لها بلهجة تنم عن التأثير  
الشديد :

— بارك الله فيك يا نفيسة ! وبارك الله فى ابنائك . . !  
فصافحته المرأة وقالت :

— وما جئت الى هنا الا لكى اطلب منك اربعة رماح  
ايها الحاكم ، فهل لك ان تأمر لى بهذا السلاح ؟



ظل الانجليز منذ سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٠٧ ، يتحينون  
الفرص للانقضاض على مصر واحتلالها بعد خروج الفرنسيين  
منها ، وتحرشوا فى سنة ١ٸ٠٧ بالدولة العثمانية وارسلوا  
اساطيلهم لاقتحام المضائق والاستيلاء على الاستانة ،  
ولكنهم فشلوا . فارتدوا الى مصر وظنوا ان الظروف

تساعدهم لتحقيق ما كانوا يصبون اليه ، وان في وسعهم النزول في الاسكندرية والانطلاق منها الى القاهرة، معتمدين على مساعدة فريق من المماليك

وفي ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ ، وصلت الحملة الانجليزية الى ميناء الاسكندرية ، وسلمت المدينة بعد دفاع ضعيف ونزل سبعة آلاف جندي انجليزى الى البر بقيادة الجنرال « فريزر » الذى سير في الحال فريقا من جنوده الى مدينة رشيد ، فاحتلوها ايضا ، واعتقدوا ان الامر قد استتب لهم ، وانهم لن يجدوا مقاومة تذكر ، مادامت المرحلة الاولى قد انتهت بمثل هذه السرعة ، وهذه السهولة

وفي طريقهم الى رشيد ، نهب الانجليز محصول الارض وقتلوا كل من اعترضهم في طريقهم ، وكان « على عامر » زوج « نفيسة » بين ضحاياهم ، اذ ذبحوه في وسط حقله ورفعوا رأسه على رمح كما روت زوجته لاعيان رشيد ، في ذلك المجلس الذى جمعهم فيه حاكم المدينة على بك السلانكلى ، ليدعوهم الى الثورة وطردهم الاغراب الفاصبين



اوفد الحاكم رسله الى المدن والاقاليم لنشر خبر احتلال مدينته ، وسقوط الاسكندرية من قبلها ، وحاجة السكان الى النجدة ، وواصل بعض اولئك الرسل طريقهم جنوبا لنشر الخبر في انحاء البلاد

واندفع الناس نحو الاسكندرية ورشيد ، بعضهم يشرع سلاحا ، وبعضهم يحمل العصي والنباييت ، وبعضهم اعزل من كل سلاح غير الايمان بحقه ، والوثوق من انه سيجد سلاحا في متناول يده ، في اللحظة الاخيرة الحاسمة

وفي الموعد الذى حدده على بك السلانكلى ، الحاكم الابى الشجاع ، وثب سكان مدينة رشيد الاشاوس ، وجنود

الحامية ، ومن التحق بهم من عربان الوجه البحرى ، والفلاحين والرعاة ، على الجنود الانجليز المنتشرين فى الشوارع والازقة والطرق ، وكانت الوثبة مفاجئة ، فأخذ العدو على غرة ، كما كان الحاكم يرجو ويرتقب ، وتعالى الصياح وسالت الدماء ، ودار القتال بالسيوف ، والرماح ، والخنجر ، او بالعصى ، والحجارة ، والايدي .. فالتأثر الراغب فى قتل عدوه لا تعوزه الحيلة ، ولا يعدم وسيلة للتخلص من ذلك العدو

وتراجع الانجليز مهزومين وخرجوا من المدينة ليلوون على شىء ، تاركين فى ميدان القتال عددا كبيرا من جثث القتلى ، وتاركين ايضا جرحاهم الذين تعذر عليهم نقلهم معهم فى فرارهم السريع

وكانت النجدة فى خلال ذلك تجد فى السير ، ووجهتها مدينة رشيد الباسلة ، لاتقاذها واتخاذها قاعدة للوثوب منها على الاسكندرية

هال القائد الانجليزى العام ، الجنرال فريزر ، ان يصاب فريق من جيشه بتلك الهزيمة البشعة ، على يد شرذمة من الجند ، وجماعات مسلحة واخرى عزلاء من السكان المدنيين ، فسير حملة اخرى لاسترجاع مدينة رشيد ، والاقتصاص من اهلها ، على امل ان يبطش بهم وينكل ، ويجعلهم عبرة لغيرهم ممن قد يفكرون فى الانتفاض على الانجليز ، ورفع راية العصيان عليهم ، والالتجاء الى الثورة لخراجهم من المدن التى يحلون فيها

ووصلت الحملة الانجليزية الثانية الى رشيد ، ولكن الجيش المصرى كان فى الوقت نفسه قد وصل اليها من الجنوب

وفشل الانجليز مرة اخرى فى الاستيلاء على رشيد والبقاء فيها

وفي ٣٠ مارس سنة ١٨٠٧ ، كان الجيش المصرى قد  
اعد عدته ، ورتب صفوفه ، واستعد لمنازلة جيش الاعداء  
فى « الحماد »

وبدأت المعركة بين الفريقين ، ولكن القائد الانجليزى ادرك  
منذ الاشتباك الاول ، ان جيشه معرض للفناء ، وان خير  
وسيلة لانقاذه هى الارتداد بسرعة الى الاسكندرية ، والاحتماء  
فيها

وتقهقر الانجليز بعد قتال قصير ، وكان همهم الوحيد  
ان يحموا ظهورهم ويصلوا الى مراكز الامان بسلام

وانطلق المصريون خلفهم يطاردونهم وينكلون بهم ، وكانت  
كتائب المتطوعين من أبناء رشيد تسير فى طليعة المهاجمين  
وبينها كتيبة تتقدمها « نفيسة » زوجة « على عامر » ،  
وابنها « احمد » ، وابنتاها « حميدة » و « فريدة » ،  
وقد رفع كل من افراد هذه الأسرة رمحا غرست فى سنانها  
رأس جندى من الاعداء !

وتساءل القواد والجنود مستفسرين عن سر هذا المشهد  
العجيب ، فانطلق الجواب من مئات الحناجر :  
- اعلام رشيد ! .. هذه اعلام رشيد !

وروى الرواة من الرشايدة خبر قطاع الرؤوس من اسرة  
على عامر ، وكيف ان زوجة الفلاح الشهيد اقسمت ان  
تثار لزوجها الذى قتله الانجليز ، بقتل اربعة من الاعداء  
تحمل رؤوسهم مع ابنائها على اسنة الرماح ، كما حمل  
القتلة رأس الزوج القتل على سنان رمح ، يوم دخلوا  
رشيد منتصرين !

لو قتل المصريون اربعة من اعدائهم مقابل كل شهيد  
يقتله الاعداء ، لما استطاعت جيوش الارض مجتمعة ان  
تحتل هذا الوادى !



وقد انطلق الجيش المصرى فى اثر العدو الهارب ، الذى  
تمكن من الاحتماء بالاسكندرية ، وقطع سدود «مريوط»  
لاغراق السهول الممتدة حول المدينة ، ليقيم بينه وبين  
الجيش المصرى حاجزا من المياه

ولكن الحاجز لم يحمه غير خمسة شهور ، اقلعت بعدها  
اساطيل الانجليز ، عائدة بالغزاة من حيث اتوا ، وتحررت  
مصر من القراصنة !



# مصرى فى عرب البوير

قتل الانجليز اباه فى مصر ، وقيّدوا  
وطنه بالسلاسل ، فسعى الى الثار لآبيه  
والانتقام لوطنه ، وقادته المصادفة فى هذه  
السبيل الى اقصى الجنوب الافريقى !

رحب القائد البويرى الجنرال « بوتنا » بالغريب الذى تقدم اليه طالبا الالتحاق بالثائرين واخذ نصيبه من القتال، وامر بأن يعطى سلاحا وذخيرة ، وربت على كتفه قائلا : « اننى لا اح عليك بالسؤال ايها الغريب ، واكتفى بما عرفته عنك : فانت مصرى تضرر فى نفسك الكره والحقد للانجليز الطامعين فى بلادنا ، وقد جئت تسعى الى الثأر فى صفوفنا من اولئك الطفاة الذين غزوا بلادك وحلوا فيها زائرين بغير موعد ، وضيوفا بغير دعوة ! »

فاجاب الرجل بصوت تخنقه العبرات : « وانا اشكرك ايها القائد على استجابة طلبى وتحقيق امنيتى . واقسم لك بأن اكون عند حسن ظنك بى ، محاربا لا يعرف الراحة ، ومقاتلا لا يعرف الهوادة . وسيكون الله معك ومع قومك البوير ، لانكم على حق والانجليز على ضلال ! »

والتحق الغريب بجماعة من الفلاحين التائرين ، وانطلق معهم فى الغابات والجبال ، يطارد الجنود الانجليز ويهاجم معاقلهم ، ويستبسل فى القتال ، ويدفع اليه رفاقه صائحا فيهم باللغة العربية : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »

وظلت تلك الصيحة - صيحة « على موافى » المصرى ، ابن الحاج موافى محمد - تدوى فى هضاب افريقيا الجنوبية سنتين وبعض السنة ، وتلقنها عنه الثائرون البوير وحلفاؤهم من الزنوج ورجال القبائل ، الذين اضافوا تلك العبارة العربية الى اهازيجهم الحربية : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »

في أواخر سنة ١٨٩٩ ، تشاور زعماء اقليمى ترنسفال وأورانج بأفريقيا الجنوبية فيما بينهم ، واتفقت كلمتهم على المبادرة الى محاربة الانجليز قبل أن يشتد ساعدهم ، ويكتمل تسليحهم ، وينقضوا على ما بقى من البلاد ليلتهموه كما التهموا من قبل شطرا منها ، ويضموا الاقاليم الافريقية الجنوبية الى املاك امبراطوريتهم

وكان يسكن تلك البلاد جماعة من المهاجرين يعرفون باسم « بوير » ومعناها بالهولندية « الفلاح » لان معظمهم من اصل هولندي . فلبى هؤلاء البوير ، وهم اصحاب الاراضى ومستغلو خيراتها ، نداء زعمائهم ، وبادروا الى حمل السلاح لصد الغزاة الطامعين ، وحالفهم سكان البلاد الاصليون من زنوج ومولدين ، واندفعت جموع الثائرين من الشمال نحو الجنوب ومن الغرب نحو الشرق ، وفي ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٩٩ حلت بالانجليز اول حلقة من سلسلة الكوارث التى جرتها عليهم تلك الحرب الطاحنة ، فهزم قائدهم الجنرال « وايت » فى معركة « دوندى » هزيمة منكرة ، وتدفق جيش البوير الظافر على مدن مستعمرة « ناتال » ووجهته الطرف الاسفل من الممتلكات الانجليزية ، فى مستعمرة « كاب »

وفى شهر يناير سنة ١٩٠٠ ، كان البوير يسيطرون على معظم تلك الممتلكات ، ويهددون الغزاة الانجليز بالهلاك الماحق ، فجردت بريطانيا العظمى لمحاربتهم جيشا قوامه مائة وخمسون الفا من الضباط والجنود ، وعهدت بقيادته الى اشهر رجال الحرب فى ذلك الوقت ، الجنرال روبرتس . . . وكان أحد القواد البوير ، الجنرال بوتا ، قد هزم القائد الانجليزى « بولر » فى ٥ ديسمبر ١٨٩٩ ، وارتفع نجمه بين زعماء الثورة ، فاتجهت الانظار اليه لاختياره قائدا عاما لجيوش البوير مجتمعة ، بعد مصرع قائدهم الاكبر الجنرال جوبير . . .

وتم ذلك فى شهر يناير سنة ١٩٠٠ . وفى تلك المناسبة،

حضر الى مقر القائد الجديد ذلك المتطوع الغريب ، الذى جاء يقول انه مصرى يبغى الثأروالانتقام ، فرحب به الجنرال بوتا والحقه برجاله الاشاوس فى الميادين ...



كان « على موافى » فى الثامنة عشرة من العمر ، عندما غادر بلدته فى صعيد مصر ، ورافق ابيه « الشيخ موافى محمد » فى موكب مشايخ الطرق واتباعهم ، الذين احتشدوا فى مدينة المنيا ، وزحفوا بزعامة « الشيخ عبد الجواد المنياوى » تخفق فوق رؤوسهم الاعلام ، وتحذوهم الاناشيد الوطنية والترانيم الدينية ، للالتحاق باحمد عرابى باشا وجيشه المعتصم فى التل الكبير ، لوقف الانجليز فى طريقهم الى القاهرة ، بعد ان اعتدوا على مصر ، وانزلوا فيها جيشهم ، وانتهكوا حياد قناة السويس ، واتخذوها طريقا لغزوهم ..

وفى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٨٢ ، قتل الشيخ موافى محمد فى معركة القصاصين ، التى بذل فيها المصريون - ولكن بدون فائدة - جهدا جبارا لصد التدفق الانجليزى على طريق القاهرة ، واصيب على موافى بجرح فى ذراعه اليسرى ، ورات عيناه الدامعتان جثة ابيه مخضبة بالدماء ومغطاة بالعلم الذى كان الشيخ الشجاع يحمله فى اثناء القتال ، ورات عيناه الدامعتان ايضا تغفل الانجليز فى ارض الوطن ، وانسيابهم كالافاعى بين الرمال والفيضان نحو العاصمة . وادرك الشاب ان كارثة قد حلت ببلاده على ايدى اولئك الأغراب ، وأن مصر - الوطن الذى يحبه - قد وصلت الى مفترق طريقين ، ولت الحرية من احدهما ، ووفد الاحتلال من الاخرى !

وهام « على موافى » على وجهه بين الكئيبان والتلال ، يبكى اياه ويبكى وطنه ، ويرجو ان تتاح له الفرصة لينتقم لهذا ، ويثأر لذلك ! ..



ووصل الى السويس ، حيث كانت البواخر القادمة من البحر الاحمر لا تجرؤ على مواصلة السير لاجتياز القناة ، فتلقى مراسيها في الميناء المصرى ، فى انتظار تطورات الحوادث ، او تبحر عائدة فى الطريق التى جاءت منها ..

وخطر لعل موافى ان يطلب عملا فى احدى تلك البواخر ، وان يسافر بها الى حيث تسوقه الاقدار . فكان له ماتمنى ، وساقته تلك الاقدار بعد رحلة طويلة شاقة ، الى ميناء « بورت ناتال » المعروف ايضا باسم « دوربان » على الساحل الشرقى لمستعمرة ناتال بأفريقيا الجنوبية ...

واختلط المهاجر المصرى بجماعة من المهاجرين العرب ، الوافدين من حضرموت وعدن وزنجبار ، وطابت له الإقامة بينهم ، فاستوطن البلاد ، وتعلم لغة اهلها ، وابتسم له الحظ فوجد عملا جعله فى مأمن من الفاقة ، بل جمع بعد بضعة اعوام ثروة صغيرة راح يستغلها فى راحة وأمان ..

ومرت الاعوام وعلى موافى لا يعلم من اخبار وطنه مصر غير النزر اليسير ، الذى يحمله اليه من وقت الى آخر مسافر قادم من الشمال ، او يرويه الناس نقلا عن السنة الانجليز انفسهم ، اذ ان الانجليز كانوا قد تسربوا الى وطن على موافى الجديد ، كما تسربوا الى وطنه القديم !

ولما نشبت الحرب بين البوير والجيوش البريطانية ، تحركت فى صدر المهاجر المصرى كوامن الذكريات ، وتفجرت معها امراجل الحقد ، وصحت الرغبة فى الثأر والانتقام !

ان العدو الذى قتل اياه فى معركة القصاصين سنة ١٨٨٢ ، والذى دنس ارض وطنه مصر وسلبه حريته ، هو هو ذاك العدو الذى فعل هنا ما فعله هناك ، والذى جرد سكان أفريقيا الجنوبية السلاح فى وجهه ، وراحوا ينزلونه فى الميادين !

اذن ، فالفرصة سانحة . وسوف يقتنصها على موافى

ليثار للدم المسفوك والحرية المسلوبة . وسوف يحارب  
الانجليز فى الاقاليم الواقعة فى الطرف الجنوبي لافريقيا ،  
من اجل مصر الواقعة فى طرفها الشمالى !

وتقدم على موافى المصرى الى الجنرال بوتا البويرى  
فاكرم وفادته . وكان المتطوع الراغب فى الشار قد بلغ  
السادسة والثلاثين ، وقد مرت على مصرع ابيه ومصرع  
وطنه ثمانى عشرة سنة !

وافرغ على موافى شعوره فى صيحته : « الله اكبر! والموت  
للاظالمين ! »



فى سنة ١٩٠٠ ، وقعت بين الانجليز والبوير معارك دموية،  
اشترك على موافى فى بعضها ، وحارب فى باردبرج وبلومفونتن  
وبريتوريا . ولكن الانجليز تغلبوا فى النهاية على مقاومة  
الثائرين ، واعلنوا ضم اقليم اورانج واقليم ترنسفال الى  
املاكهم الامبراطورية ، واضطر الثائرون الى تحويل القتال  
الى حرب عصابات فى الجبال والوديان والسهول والغابات .  
والتحق بهم آلاف من المتطوعين من كل جنس وكل بلد :  
فجميع سكان افريقيا الجنوبية ، ايا كان الاصل الذى  
ينتمون اليه ، تضافروا وعقدوا الخناصر على مقاومة الغزاة  
الى اقصى حدود المستطاع !

وخلف الجنرال روبرتس فى قيادة الجحافل الانجليزية  
قائد آخر اثبت فى الحروب السابقة دهاءه المشبع بالقسوة  
والبطش ، ذلك القائد الجديد هو الجنرال كتشنر ، الذى  
رد على انتصارات البوير فى حرب العصابات التى نجحوا  
فيها ، باعتقال نسائهم واطفالهم وحشد ذلك القطيع المسالم  
فى معسكرات لا يتوفر فيها شىء من اسباب الراحة فمات  
منهم آلاف جوعا وعطشا وبردا ومرضاً وحرماناً . . !

وجمع البوير جموعهم لتسديد ضربتهم الاخيرة الى الانجليز ، فوثبوا على الجنرال « ميتوين » وجيشه في بلدة « تويبوش » في السابع من شهر مارس سنة ١٩٠٢ ، ومزقوا صفوف أعدائهم تمزيقا ، واسروا القائد الانجليزى وبضع مئات من ضباطه وجنوده ...

وفي معركة تويبوش سقط على موافى المصرى قتيلا وسيفه بيده ، وكانت آخر كلماته تلك الصيحة التى ألفها منه البوير ورددوها معه : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »

شاءت الاقدار ان لا يشعر على موافى بخيبة الامل قبل أن يغادر هذا العالم الى جنة الخلد . فقد غسل الدم بالدم ، وحارب عدو وطنيه ، الوطن الاول الذى هاجر منه ، والوطن الثانى الذى لجأ اليه ، وسقط فى الميدان قرير العين ، ومات ميتة الابطال فى حومة الوغى ، ولم يعش ليشاهد بعينه انهيار صفوف اصدقائه البوير ، واضطراهم الى قبول شروط الصلح التى فرضها عليهم الفزاة بعد معركة تويبوش ، التى كانت للبوير نصرا ولكنه نصر بمثابة هزيمة . فقد استنفدت هذه المعركة قواهم ، فاضطروا الى القاء السلاح والرضوخ لاحكام القدر القاسية !

اما على موافى ، فقد دفن فى ساحة القتال التى سقط فيها ، وحياه رفاقه التحية الاخيرة مرددين صيحته المحبوبة : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »



# عمر المصري

يُجد القارئ هنا قصتين في قصة :  
كيف كان الطربوش المغربي سببا لثورة  
العربان في مصر ، وكيف اقنعت سكينه  
البدوية قومها بوجوب التمسك بالتقاليد  
العربية الموروثة ..

قضى « بكر المنيأوى » ليلته الأولى ، بعد خروجه من القاهرة المحروسة ، فى خان يؤمه العربان وتحط فيه القوافل رحالها ببلدة البدرشين ، فى ذهابها وأوبتها بين العاصمة المصرية ومدن الوجه القبلى . ونهض مبكرا فى صباح اليوم التالى لاستئناف السير الى المنيا . وكانت تصحبه فى تلك الرحلة زوجته المعروفة فى المدن والاقاليم باسم « سكىنة البدوية » البارعة فى معالجة الجراح بما تستخرجه من خواص الاعشاب والازهار ..

وكان « بكر المنيأوى » اعرابيا من قبيلة « الجوازى » الضاربة فى اقليمى المنيا والفيوم ، المشهورة بالفروسية وتربية الخيول الاصيلة ، وتوريد الجمال والماشية لاهل المدن على طول مجرى النيل . وكانت مهنة « بكر » التوسط بين الموردين والمستوردين ، مما جعله كثير الاسفار دائم التنقل من مكان الى مكان .. وأما « سكىنة » فاعرابية مثله ، تنتمى الى احد بطون « اولادعلى » الكثيرة ، فى الصحراء الغربية . وقد تزوجها « بكر » فى احدى رحلاته الى برقة ، ووجد فيها خير رفيق فى حياته ، وخير معين فى عمله

لم يدر حديث الزوجين فى ذلك اليوم ، وهما عائدان من القاهرة وقد استوى كل منهما على ظهر ناقته ، حول رحلة جديدة يفكران فيها ، او صفقة رابحة يسعىان اليها . بل كان حديثهما فى هذه المرة منصبا على موضوع لم يطرقاه من قبل ، وعلى امر خطير يتوقف عليه مصير قومهما ومستقبل أسرتهما ..

قال بكر بصوت عميق متهدج :



— اننى اوجس خيفة يا سكينه . . . اوجس خيفة من  
اقب هذه المغامرة التى ارى قومنا مسوقين اليها بدافع  
ن الاقدار . . . ومما يدعو الى الاسف ، ان الحكام فى القاهرة  
ياخذوا بعين الاعتبار مبلغ تأصل التقاليد فى نفوس  
مربان ، ومقدار تمسكهم بما توارثوه من عادات وشمائل  
عن جد من قديم الزمان !

فأقرته « سكينه » على رأيه . وازافت قائلة :

— علينا ان ننبه القوم الى ما يدبر لهم ، وان نطلعهم على  
السمعا ورأينا فى القاهرة . وعليهم ان يعدوا للمفاجآت  
مدتها ، وان يتخذوا للغد حيطته . . !

ماذا سمع الزوجان ، وماذا رأيا فى القاهرة ؟



كان الحكم قد آل الى محمد سعيد ، اصغر ابناء محمد  
على ، منذ سنة ١٨٥٤ . وكان الوالى الجديد بخلاف سلفه  
وابن أخيه « عباس الاول » ، يرغب فى إعادة مجدد  
الجيش المصرى الى سالف عهده ، وتنظيمه على أسس  
وقواعد تتفق مع مقتضيات العصر

كان الجيش المصرى قد تطرق اليه الانحلال والضعف فى  
السنوات السابقة ، فعهد محمد سعيد الى زيادة عدده ،  
وفكر فى استخدام القبائل العربية الضاربة فى مصر  
أقاليم مصر وعلى الحدود ، وكانت قبيلة الجوازى النازلة  
فى اقليم المنيا والفيوم ، اول قبيلة اتجهت اليها انظار الوالى  
لتحقيق هذا الغرض . فدارت بينه وبين زعيمها « عمر  
المصرى » — او « عمار المصرى » بلهجة ابناء البادية —  
مفاوضات تولاها فريق من ضباط الجيش الشراكسة والترك  
وتم الاتفاق بين الحكومة وشيوخ القبيلة على جميع شروط  
التعاون ما عدا شرطين اثنين : ان يكون التجنيد اختياريا

لا اجباريا ، وان يظل المجندون من رجال القبائل محتفظين  
بزيتهم العربي ، وعلى الخصوص بطربوشهم المغربي ذى الزر  
الضخم الطويل !

ونشب الخلاف حول هذين الشرطين ، فوافق الوالى  
على الشرط الاول الخاص بطريقة التجنيد ، ولكنه رفض  
الشرط الثانى واصر على ان يرتدى العربان المجندون زى  
العساكر المصريين ، رغبة منه فى توحيد الزى وعدم التفريق  
بين العناصر التى يتألف منها الجيش الجديد . .

واصر « عمر المصرى » من ناحيته على ان يحتفظ بنو  
قومه بزيتهم وطربوشهم ، وانقطعت المفاوضات بين الفريقين !

وكان الضباط الشراكسة والترك فى الجيش لا ينظرون  
بعين الارتياح الى اهتمام الوالى بأمر العربان ورغبته فى  
ارضائهم ، وميله الى معاملتهم معاملة خاصة فراحوا يوغرون  
صدره على « عمر المصرى » وجماعته ، ويضغطون عليه  
ليقابل مطالبهم بالشدة والعنف . فنجحوا فى مساعيهم ،  
وقرر محمد سعيد تجريد حملة على عربان المنيا والفيوم  
لتأديبهم وارغامهم على الرضوخ لارادته بلا قيد ولا شرط !

وفكر الضباط انصار العنف والشدة فى استخدام فريق  
من العربان فى محاربة الفريق الآخر ، فأوفدوا الرسل  
الى قبائل « اولاد على » فى الصحراء الغربية ، ونجح اولئك  
الرسل فى اقناع بعض العشائر بالالتحاق بالحملة ومهاجمة  
« الجوازي » من الخلف ! وقامت الاستعدادات فى القاهرة  
لتشكيل القوة المحاربة وارسلها فى اقرب وقت الى  
الاقليمين العاصيين . .



هذا ما وصل الى علم « بكر المياوى » وزوجته فى اثناء  
اقامتهما بالعاصمة ، وقد هالهما ان تعد العدة للبطش

بقيلتها وهى عن الخطة لاهية ، وان يلاقى المحرضون  
على القتال عوناً من قبيلة عربية اخرى ، تربطها بقبيلة  
الجوازى روابط الجوار والرحم والقربى !

وعاد الزوجان مسرعين الى ديار قومهما ، لاطلاعهم على  
ما بلغ مسامعهما ، ووقع عليه نظرهما ، ولانذارهم بوجوب  
التأهب لدرء الخطر الداهم !

تنادى العربان وتصارخوا الى القنال قبل ان تتحرك  
القوة الزاحفة عليهم من قواعدها بالقاهرة والجيزة . وهرع  
الى السلاح كل قادر على حمله من رجال « الجوازى »  
ونسائهم ، واستنجد القوم بالعشائر المجاورة فأنجدتهم  
بما تيسر لها من فرسان وهجانة وذخيرة وزاد وتولى قيادة  
الثائرين بطلهم المغوار وزعيمهم المحنك ، « عمر المصرى »  
الشهير بعمار . .

وفاجأت الحملة العسكرية جموع العربان فى طريق  
الواحات البحرية ، ودارت المناوشات بين الفريقين متقطعة  
متفرقة ، حتى اشتبكا اخيراً فى معركة عرفت بواقعة  
« بلاط » حيث اطبق الجيش على الثوار من كل صوب ،  
بعد ما وافته الى ذلك المكان القوة التى أنجدته بها عشائر  
« أولاد على » ، فأخذ العربان بين نارين ، بل بين اربع نيران  
وبعد قتال دام بضع ساعات ، شعر «عمر المصرى» بأن  
الدائرة دائرة عليه ، وان رجاله لن يقووا على الصمود  
أمام جيش يفوقهم عددا وعدة وذخيرة ، وان استبسالهم  
فى القتال لن يجديهم نفعا . . ! وادرك الزعيم الشجاع ان  
الحظ يخونه ، وانه سيقضى عليه وعلى قومه ، فأوشك  
ان يصدر اليهم امره بالتراجع والانطلاق فى الصحراء  
الواسعة

وفجأة ، علت صرخة من احدى جهات الميدان ، واعقبها  
هرج ومرج ، واضطربت صفوف العساكر وارتفعت سحب

من الغبار جعلت تبتعد نحو الشمال ، وسمعت اصوات  
تصيح : « اولاد على ! اولاد على ! »  
وانقلب القتال من حال الى حال !

ان الحرب أحيانا خدعة أكثر مما هي شجاعة واقدام .  
وقد عمد « الجوازي » في تلك المعركة الى خدعة أنقذتهم من  
الهلاك ، وغيرت مجرى القتال في حومته ونفذت تلك الخدعة  
على يد « بكر النياوي » وزوجته « سكينه البدوية » . . .  
فقد هرعت المرأة الى بنى قومها « اولاد على » يصحبه  
زوجها ، وصاحت بهم : « متى كان العربان يقاتلون العربان  
ومتى كان البدوي يطعن اخاه البدوي في ظهره ، بينما  
يتلقى طعنات المهاجمين بصدرة ؟ ومتى كانت المصاهرة بير  
العشائر تؤدي الى خيانة الدم والخروج على التقاليد ؟ إلا  
كفوا عن القتال يا ولد على ، فالدم الذي تهرقونه دمكم ،  
والمضارب التي تهدمون رواقها ، والبيوت التي تخلعون  
اطنابها ، مضاربكم وبيوتكم ! »

وواصلت المرأة انطلاقتها بين الصفوف صائحة أيضا  
« اننا نقاتل في سبيل هذه البرانس التي تلتحفون بها ، وهذه  
الطرايش التي تزينون بها رؤوسكم ! »  
وتشاور شيوخ « اولاد على » فيما بينهم ، وقر رأيهم  
على الانسحاب من المعركة ، لانه لا يليق بهم أن يقاتلوا  
عربانا مثلهم . . .

وفتح انسحابهم ثغرة في جبهة الجيش ، فصدرت اليه  
الاوامر بالارتداد ، وظل « عمر المصري » ورجاله اسياذ  
الميدان في تلك المعركة !

وارتفعت وسط الضجيج وقرقة السلاح ، زغاريد  
البدويات الفرحات الملهلات ، وكانت « سكينه » زوجة  
« بكر النياوي » في طليعة المزغردات !

ولكن فرحتها في ذلك اليوم لم تتم على اكمل وجه

بل شاءت الاقدار ان تنفص على المرأة الباسلة تكبيرها وتهليلها : فقد سقط « بكر النياوى » قتيلا فى حومة الوغى بطعنة فارس شركسى ، وعجزت زوجته الطيبسة المداوية عن انقاذ حياته ، بالرغم مما بذلته من عناية وتفنتت فى ابتكاره من عقاير ، فان مهارتها قد خانتها فى ذلك اليوم الذى كانت فيه اشد ما تكون حاجة اليها ، لكى تنتزع من مخالب الموت اعز انسان عليها فى الوجود ..

وبعد أن زغردت النساء للنصر ، انصرفن الى ندب القتلى ومواساة الجرحى . وبكت « سكينسة البدوية » زوجها وعولت منذ تلك اللحظة على الرحيل عائدة الى قومها ..

وأبى « عمر المصرى » الا ان يشيد بفضل المرأة الباسلة على مرأى ومسمع من القوم ، فالتف شيوخ العشائر حوله ، ورفعوا سيوفهم لتحية البدوية التى كان العمل الذى اقدمت عليه عاملا من عوامل انتصارهم !

تلك قصة الطرابيش المغربية ذات الازرار الطويلة الضخمة ، وتلك قصة انسحاب عشائر « اولاد على » من معركة « بلاط » فى أوائل عهد محمد سعيد

وكان لهذه القصة المزدوجة حواش وذبول !

فقد رحل « عمر المصرى » عن ديار القبيلة بفريق من رجالها ونسائها ، ونزل فى البصحراء الغربية فى باطن برقة ، حيث صاهر العشائر الضاربة فى تلك الانحاء

والغريب فى رحيل ذلك الزعيم البدوى عن دياره، ونزوحه عن موطنه ، انه لم ينزح بسبب انهزامه فى معركة ، بل بسبب انتصاره فيها ! فعمر المصرى من ارومة نجدية ، والتقاليد التى ورثها عن اجداده النجديين تقضى بأن يرحل الغالب عن البقاع التى كتبت له فيها الغلبة فى الحروب ! ولا تزال هذه العادة حية معمولا بها عند كثير من العشائر

العربية في جزيرة العرب وسيناء والصحراء الغربية  
والشمال الافريقى : وهذا ما فعله «عمر المصرى» بعد واقعة  
« بلاط » !

وبقى الرجل مقيما في برقة الى سنة ١٨٦٣ . فقد  
أوفدت الحكومة المصرية الرسل لاستدعائه ورفاقه ، فلبوا  
الدعوة وعادوا الى مصر ، حيث عهد اليهم بحراسة الحدود  
الغربية ، مع بقاء ماكانوا يتمسكون به من امتيازات - وفي  
مقدمتها الاحتفاظ بزيهم العربى ، وطربوشهم المغربى !

وكان عمر المصرى - الذى تولى من جديد زعامة قومه  
فى عهد اسماعيل - يقول فى كل مناسبة : « ما كنا للصوصا ،  
وما كنا أشرارا ، وما كنا باغين ! ولكن وسطاء السوء هم  
الذين سببوا الفتنة ، فى حين اننا كنا فى كل ظرف ووقت  
و حال سيوفنا مرهفة ، ورماحا مشرعة ، فى خذلية نارية  
واعلاء شأنها ! »

ولم يكن عمر المصرى - او عمار المصرى - مخطئا او  
مبالغا فيما ذهب اليه : فقد مشى عربان مصر مع ابناء مدنها  
وقراها وحقوقها جنبا الى جنب فى الحروب والغزوات ،  
وبذلوا مثلهم الدماء والارواح ، فى ربوع الشام وجبال  
لبنان ، وفى ربي نجد وصحارى الحجاز ، وفى هضاب فلسطين  
وسهول السودان ، حيث تضم مقبرة واحدة فى بلدة  
« شندى » رفات نجل عمر المصرى ومئات آخرين من رفاة  
عربان الجوازي الذين سقطوا فى الميدان من أجل مصر  
ووحدة وادى النيل !

أما حادثة « بلاط » فانها لم تكن ثورة بالمعنى المقصود  
من هذه الكلمة ، كما وصفها بعض المؤرخين ، ولم يكن  
الغرض منها السلب والنهب والخروج على السلطة الشرعية  
فى البلاد كما ادعوا ، بل كانت مظهرا من مظاهر سياسة  
الدس والكيد ، العزيزة على النفوس فى ذلك الوقت !

# في الكنيسة المعلقة

رجل راح شهيد وفائه ، وامرأة  
راحت شهيدة مروءتها : وفي الحالتين  
تضحية جديرة بالاكبار والاعجاب



فى الملفات التى كانت محفوظة بمتحف «بونابرت» بالقاهرة  
— الذى انشأه العالم الفرنسى المرحوم « شارل جلياردو »  
وتفرقت محتوياته بعد موته ، فلم تحتفظ بها الحكومة  
المصرية — عثرت على المخطوط الذى اقدمه هنا . وهو  
مخطوط مؤلف من تسع وريقات مكتوبة بخط دقيق واضح  
سطر صاحب المتحف على هامش الوريقة الاولى منها  
انها « جزء من مذكرات الضابط الفرنسى ن . ن » وانها  
آلت اليه من ابيه الذى أخذها من الطبيب « كلوت بك » .  
والمخطوط يروى قصة ثلاثة من المصريين وجندى فرنسى  
فى عهد الجنرال « كليبر » ، وهى قصة جديدة بأن تنقل  
كما رواها كاتب المذكرات « ن . ن » بلا تعديل ولا تحوير  
ومع ان الكاتب لم يذكر تاريخ وقوع الحادث الذى رواه ،  
الا انه اشار الى حدوثه فى خلال ثورة القاهرة على الفرنسيين  
فى عهد « كليبر » ، وقد نشبت هذه الثورة فى النصف  
الثانى من شهر مارس سنة ١٨٠٠ وظلت مشتعلة حتى  
قمعها الفرنسيون فى منتصف ابريل ، اى بعد شهر تقريبا  
من نشوبها . فيكون الحادث الذى نحن بصدده قد وقع  
اذن فى الايام الاولى من شهر ابريل سنة ١٨٠٠ ، واليك  
ترجمة القصة كلها كما دونت فى الوريقات التسع ، ولا  
فضل لى فيها غير النقل الامين :



« لزمتم قصر القائد العام بعد اصابتي بجرح منعننى من  
الاشتراك فى معركة « عين شمس » التى انتصرنا فيها  
على الجيش التركى انتصارا تاما . وان كنا لم ننعم بشمرة

انتصارنا ، اذ ثارت القاهرة علينا فحاصرنا الثائرون في  
الاماكن التى نقيم فيها ، واصبح حتما على الجنرال «كليب»  
- وهو خارج العاصمة - ان يستولى عليها من جديد ويخمد  
الثورة ويقضى على القائمين بها ، وبدأ بعض معاونى القائد  
يتذمرون ويتهامسون قائلين ان السياسة التى سار عليها  
بعد عودة الجنرال «بونابرت» الى فرنسا ، افقدتنا ما كنا  
قد ربحناه من حب المصريين وتعاونهم معنا ، وان مصير  
الحملة أصبح الآن رهن الاقدار ، بسبب «كليب» الذى  
لن يستطيع الاحتفاظ بالارث الذى تركه له «بونابرت»



« علمت من صديقى «فيليب» ان المصريين الذين فى  
خدمة القائد العام بقصر الالفى متذمرون ايضا من المعاملة  
السيئة التى يجدونها منه ومن المقربين اليه . وقال لى  
«فيليب» ايضا ان القائد العام طرد من القصر الحوذى  
«احمد المنبارى» والطباخ «شلبى يعقوب» واخته «اميرة»  
التي كانت تدير المغسل وغيرهم من الذين كان «بونابرت»  
يشملهم بعطفه . ذلك ان الحوذى رفضه حسان فكسر فخذه  
والطباخ هبت فى وجهه النار فأصيب بحروق بالغة . وبدلا  
من ان يكافئهما القائد ويأمر بالعناية بهما ، فانه طردهما  
من الخدمة . وآثرت الفتاة «أميرة» أن تصحب أخاها .  
ويؤكد «فيليب» ان الثلاثة فتحوا دكانا صغيرا لبيع  
السلع والاطعمة البلدية فى مصر القديمة ، بالقرب من كنيسة  
العدراء التى يسميها الاقباط «الكنيسة المعلقة» لانها  
قائمة على ارتفاع كبير من مستوى الطريق . وقد زارهم  
«فيليب» فى دكانهم لانه يميل الى الفتاة ويعرض عليها  
الزواج ولكنها ترده نافرة . . وسأزورهم ايضا مع صديقى  
عندما يعود الهدوء الى المدينة ، ولكن هل يعود اليها الهدوء

وهل نعرف من جديد تلك الراحة التى عرفناها مدة من الزمن فى عهد بونابرت ؟



« ضرب الجيش بقيادة « كليبر » نفسه الحصار على القاهرة ، وبدأت فصائله تتسرب الى الاحياء الثائرة وتقتحم معاقل الثائرين الذين يبدون فى المقاومة عنادا يدهش عقولنا ويوجد بينهم بضعة آلاف من الترك مع قوادهم ، وبعض المماليك الذين شردهم « بونابرت » من قبل . وتطوف على الالسنة اسماء « عثمان كتحذا ومحمد الالفى وحسن الجداوى ومصطفى البشتيلى والسيد المحروقى » الذى يتولى تموين الثائرين . وظهر من جديد رجل سبب للحملة كثيرا من المتاعب هو « عمر مكرم » ، ويقال ان هذا الرجل تمكن من اقناع زعماء الاقباط بأن يشتركوا مع المسلمين فى هذه الثورة ففعلوا ، ولم يبق منهم على ولائه للفرنسيين غير « المعلم يعقوب » الذى نسميه « جنرال » ويعقد زعماء الاقباط اجتماعاتهم فى بيت « المعلم جرجس الجوهري » حيث يضعون الخطط المشتركة بينهم وبين « مكرم والمحروقى والبشتيلى » للقضاء على الحامية الفرنسية قبل ان تصل اليها الامداد من خارج العاصمة . اننا فى مركز لا نحسد عليه . ويهاجمنا الثائرون فى عقر دورنا . فالقصر نفسه لم يسلم من جرأتهم . وقد قتل كثيرون من رجالنا ضربا بالعصى فى الشوارع والازقة التى سد معظمها بالمباريس . ويخيل الينا انه لم يبق لنا صديق فى هذه البلاد



« قضينا عشرة ايام رهيبة . فمدفيعتنا تدك الاحياء بمقدوفاتها وتدمر البيوت على رؤوس المعتصمين بها . وقد

اشتد القتال على الخصوص في بولاق ومصر القديمة والخرنفس وحول الازهر . ونحن نسترجع المدينة الثائرة حيا بعد حى وزقاقا بعد زقاق . ومن حسن حظنا ان الثائرين يفتقرون الى الاسلحة النارية في حين انها متوفرة لدينا ولولاها لكان مصيرنا الهلاك او الفرار . وترد علينا كل يوم اخبار سارة عن تغفل جنودنا في الاحياء التي تركز فيها الثورة . وفي كل يوم تزداد ثقتنا بأننا سنخرج من هذه التجربة القاسية سالمين !

« تلقيت أمرا بالذهاب مع خمسين من رجالنا لنجدة فصيلة من الرماة عهد اليهاباخماد الحركة في «مصر القديمة» حيث الكنائس واطلال الاسوار والمقابر ، وقد انقطعت عنا اخبار هذه الفصيلة ويخشى ان تكون قد وقعت في كمين



« لم يخطيء ظننا : فقد فاجأ الثوار فصيلة الرماة وكانت بقيادة فيليبير . وتشتت رجالها ، فقتل منهم من قتل ، وهرب الباقون وعادوا الينا . ولا يزال فيليبير مفقودا . وقال بعض الجنود انه جرح وان المصريين حملوه معهم واختفوا بين البيوت القديمة المتداعية . فاذا كان فيليبير وبعض رجاله قد وقعوا في الاسر ، فلا بد من انقاذهم !



« شهدت منظرا لن انساه ماحيت ! فقد سرت مع رجالى واخترقنا الطرقات الضيقة الملاى بالاوحال نحو المكان الذى فوجئت فيه الفصيلة في « مصر القديمة » . وعلى مقربة من الكنيسة المعلقة ، رأينا جمعا من المصريين فاطلقنا عليهم النار وهاجمناهم بحراب البنادق واذا بهم يتسللون خلف الجدران ويختفون ماعدا خمسة منهم . ظلوا في هرج

ومرج امام باب دكان صغير ، فلما اقتربنا منهم رفعوا  
أيديهم مستسلمين . وهنا فوجئت بالصدمة التي لن أنساها  
فقد رأيت صديقي « فيليبير » يخرج من الدكان ويصيح  
بنا من بعيد قائلاً اننا قتلة مجرمون ، ثم يستل سيفه  
ويغمده في صدره فيسقط على الارض والدم يسيل منه  
بغزارة ! وصعقنا لهذه المأساة . ولكننا عرفنا الحقيقة فيما  
بعد ، فأكبرنا عمل رفيقنا وأكبرنا ايضاً مسلك المصريين  
الثلاثة الذين طردهم الجنرال القائد العام من القصر . وهم  
الحوذى احمد المنبارى ، والطباخ شلبى يعقوب ، وأخته  
الفتاة أميرة !

« ويتلخص ما حدث فى أن الفصيلة التى قادها فيليبير  
وقعت فعلاً فى كمين . فقتل سبعة من رجالها ، وفر الباقون  
وأصيب فيليبير بجرح فى جنبه . وشاءت المصادفات أن  
يقع ذلك الحادث بالقرب من دكان المصريين الثلاثة ، حيث  
كان شبان الحى يجتمعون . وعرف المنبارى وشلبى صديقيهما  
فليبير فحملاه الى الكنيسة المعلقة حيث كان الرهبان  
الاقباط يسعفون الجرحى ويواسونهم . وهناك لحقت به  
الفتاة أميرة وأحاطته بعنايتها ورعته بعطفها . وبعد أن  
ضمدت جرحه ، وطببت خاطره ، ابقته فى حمى الرهبان  
بضعة أيام . حتى اذا ما استعاد قواه ، نقلته برفقة أخيها  
شلبى وصديقيهما المنباوى الى اطراف الحى لاطلاق سراحه  
واعادة حريته اليه . وعندما وصل الاربعة امام الدكان ،  
وجدوا جماعة من الثائرين اوقفوهم برهة من الزمن ، وراح  
الجميع يتباحثون فى كيفية اعادة الجريح الى قومه بدون أن  
يصاب بأذى . وفى تلك الاثناء وصلنا ، فأطلقنا النار على  
الحشد واقتحمنا الزقاق بالحراب . واسفر هجومنا عن  
مصرع بعض المصريين ومن بينهم الاخ والاخت !.. فقد  
قتلنا الفتاة المسكينة أميرة وأخاها شلبى ، فى الوقت الذى

كانا فيه يضعان خطة لاتقاذ رفيقنا فيليبير !.. وقد صعد  
الدم الى رأس الشاب المسكين عندما رأى صديقيه يسقطان  
على الارض قتيلين فانتحر امامنا على تلك الصورة المفجعة!



« عدنا الى مراكزنا بعد هذه المأساة حاملين معنا جثة  
فيليبير المخرجة بالدم . وقبل ان تغادر مكان الحادثة ،  
أمرت رجالى بأن يقفوا صفا واحدا ويؤدوا التحية العسكرية  
للفتاة وأخيها . ثم سرنا مع البقية الباقية من المصريين الى  
الكنيسة القريبة ، وقد خمدت فى صدورنا وفى صدورهم  
فورة الحق امام رهبة الموت وجلاله . وطلبنا من الرهبان  
ان يصلوا على الجثث .. جثث فيليبير وشلبى وأميرة ،  
ففعلوا ، وكان شبان الحى المسلمون يقفون خاشعين ، وقد  
اختلفوا برفاقهم الاقباط ، أما نحن فكان موقفنا اشبه  
بموقف المتهم امام محكمة العدالة . ويا له من موقف رهيب!  
فان صدرى ينقبض من شدة التأثر ، وأنا ادون هذه  
الحادثة بعد وقوعها ، واتخيل امام ناظرى جثة تلك الفتاة  
التى احبها فيليبير ، والتى فرقت بينه وبينها الظروف فلحق  
بها الى الآخرة . ولا تزال ترن فى أذنى انغام الاناشيد الحزينة  
التى كان الرهبان يرتلونها امام هيكل العذراء فى الكنيسة  
المعلقة ، وهم يرفعون أيديهم ليباركوا الجثث الثلاث ! »



هذا مادونه الضابط « ن . ن » فى مذكراته عن مصرع  
زميله « فيليبير » ، وطباخ الجنرال « كليبر » الفرنسى ،  
و« شلبى يعقوب » وأخته « أميرة » المصرية الشائرة . نقلته  
بالحرف الواحد بلا زيادة ولا نقصان !





# مصر الظفيرة

هتف الزعيم : « نصر من الله وفتح  
قريب ! » فكان له النصر والفتح !

اطلق الفرسان الاربعة لخيولهم العنان ، ثم اخذوا يحثونها بالمهاميز ، فتندفع بهم كالسهم المارقة تشق عباب الصحراء وظل الرفاق الاربعة صامتين واجمين ، لا يتبادلون الحديث الا نتفا متقطعة ، كلما وقفوا للراحة او لتناول القليل من الطعام وترك جيادهم في خلال ذلك ترعى الاعشاب النادرة في تلك القفار الجرداء

كان « مصطفى علوان » قائد هذه الجماعة . وهو عملاق في نحو الخمسين من العمر . جهورى الصوت سريع التأثير يتلقى رفاقه كل كلمة من كلماته امرا مطاعا . وكان من اكبر تجار الخيل في مصر ، وفارسا لا يشق له غبار ، حتى لقد عرف بين فرسان الممالك المشهورين باسم « مصطفى الخيال » ثم غلب عليه هذا اللقب واشتهر به بين الجميع اما رفيقه الثانى فهو اخوه عبد الله . واما الفارسان الاخران فكانا من الجنس اللطيف !

واولاهما ، هى : « زينب » زوجة مصطفى . وقد التقطها الرجل يتيمة في شوارع القاهرة : فأخذها الى بيته ثم تزوجها فجلبت معها اليه الخير والرزق ، مما جعله يسميها « بركة » فاحتفظت بهذا الاسم نزولا على رغبته واما الاخرى ، فتاة يانعة ، فى الخامسة عشرة هى « وحيدة » ابنة عبد الله . ماتت أمها وهى طفلة لم تتجاوز الثالثة بعد فاحتضنتها زوجة عمها « بركة » التى لم ترزق ابناء وعاشت الاسرة المكونة من الرجلين والمرأة والابنة الوحيدة على أتم ما يكون من وفاق ومحبة واخلاص

كان مصطفى الخيال يطوف بلاد العرب ومضارب البادية

باحثا عن الخيول المطهمة والافراس الاصيلة ، فیسوقها الى القاهرة حيث يختار منها الممالك اجودها ، ويتاجر مصطفى بما بقى منها في أسواق مصر أو في عواصم الامارات والممالك العربية المجاورة ، فذاعت شهرته ، وأحبه الناس لامنته في المعاملة ، ونال الحظوة في قصور الملوك والامراء والقواد ، من وادی النيل الى ضفاف بردي ودجلة والفرات وكان يصطحب معه في رحلاته أفراد أسرته الثلاثة ، وكانت المرأة والفتاة تتحملان متاعب السفر بشجاعة وجلد عظيمين ، فعرفتوا الحواضر والبوادی والجبال ، وفاقوا في فنون الفروسية كثيرين من الرجال

وعلى شاطئ الفرات ، علمت أسرة الخيال بما أحرزته جيوش المغول بقيادة هولاكو من انتصارات ساحقة جارفة وهى في طريقها من الشرق ، متدفقة على فارس والعراقين فعزم المصريون الاربعة على العودة الى بلادهم ، مارين بدمشق الشام ، لايقاظ الغافلين ، وابلاغ حقيقة ذلك الخطر القادم الى مسامع الذين يجهلونه أو لا يأنهون به



وصل مصطفى الخيال ورفاقه الثلاثة الى « الفوطة » فاستراحوا بضع ساعات ، وتركوا لجيادهم الوقت الكافى لاستعادة قواها ، ثم توجهوا الى قصر « الناصر يوسف » صاحب دمشق ، الذى رحب بمصطفى وشكره على المهر الذى ابتاعه منه فى العام السابق ، قائلا :

— أنه أحسن جیاد هذا البلد يا مصطفى . وقد أطلقت عليه اسم « محروس » عملا برأيك . فهل « محروسة » أمه معكم اليوم ؟

فأجاب مصطفى :

— نعم يا مولای . ان « محروسة » هى الفرس الأصیل

التي لا يحلو لزوجتي بركة ركوب غيرها . ونحن الآن في طريقنا الى مصر . واخشى لو واجهنا المهر بأمه ، أن يتعذر عليكم ترويضه فيما بعد . فأنت تذكر كيف أن ذلك المهر كان شديد التعلق بأمه ، وأنكم قضيتم شهورا عاجزين عن ترويضه واعتلاء متنه . ولكن دعنا من المهر والفرس ، فما عرجت على قصر ك اليوم للتجارة ، بل للانداز !

وقص مصطفى الخيال على الناصر ما علمه ورآه في رحلته من أمر أولئك المغول القادمين من الشرق بقوة هائلة وعدد لا يحصى . وكان الناصر قد علم الشيء الكثير من اخبارهم فتضاعفت مخاوفه ، وعرض على تاجر الخيول المصري أن يبعث معه الى مصر رسولا لتحية صاحبها « سيف الدين قطز » والاستنجاد به والتحالف معه على صد الغزاة الوافدين . فقبل مصطفى الخيال واستأنف السير في اليوم التالي ، ومعه رفاقه الثلاثة ورسول الناصر الى قطز ، وانطلق الجميع يقطعون المفاوز وينهبون الارض نهبا ، الى القاهرة محط الرحال ومعقد الآمال ، القاهرة المحروسة التي سمت « بركة » فرسها باسمها تيمنا ومجلبة للخير !



ضربت الفوضى أطنابها في مصر بعد مأساة شجرة الدر ، وعندما وثب المغول وثبتهم من مجاهل آسيا ، كان الملك في وادي النيل قد آل الى نور الدين على ، ابن المعز أيبك ، وهو صبي لاحول له ولا طول ، وقد لقب « بالملك المنصور » فكان اللقب اسما على غير مسمى ، وقام بنيابة السلطنة الأمير سيف الدين قطز من الممالك البحرية ، وأدرك ذلك الرجل المقدام أن المملكة لن تصمد في وجه الغزاة الا اذا قبض قابض فيها على السلطة بيد من حديد ، فراح يفكر في الأمر ويرسم الخطط لبلوغ هذا الغرض

وكانت الحوادث تتلاحق مخيفة هائلة : فقد تدفق أربع مائة ألف مغولي على العراقيين بقيادة هولاء ، الذي تنبأت له إحدى العرافات بأن جيشه لن يغلب ما دام هو قائما على رأسه وفي شهر صفر عام ٦٥٦ الموافق لشهر فبراير عام ١٢٥٨ للميلاد ، وثب المغول على بغداد فاحتجموا أسوارها ، ونهبوا وسلبوا سبعة أيام كاملة ، واعتقلوا المستعصم بالله العباسي فأخذوه أسيرا مع ابنائه ، ثم قتلوه فكان آخر الخلفاء العباسيين في بغداد

وكان هولاء في الواحدة والأربعين من العمر . فسكن بنشوة ذلك الفوز العظيم ، وواصل الزحف غربا ، فعبر الفرات وصبغ ماءه بالدم كما فعل من قبل بدجلة ، وفرق جيشه اللجب في كل ناحية وصوب ، واضعا نصب عينيه الاستيلاء على سوريا سهلا وجبلا ، وكان أول أهدافه دخول حلب ، وثانيها دخول دمشق ، وثالثها الانطلاق نحو مصر وقاعدتها المحروسة !

وصف مصطفى الخيال لسيف الدين الحالة كما عرفها ، وانبأه بأن الناس في الأقاليم السورية خائفون قلقون ، وأن أمراء تلك الأقاليم لن يقفوا على صد الغزاة أو الوقوف في طريقهم غير بضعة أسابيع ، بالنظر إلى ما هم عليه من ضعف وتخاذل وشقاق

وبسط رسول الناصر الحالة في دمشق ، وأبلغ سيف الدين رغبة الرجل في العمل يدا واحدة معه ، واستنجاهه به لانقاذ سوريا من الفتح المغولي ، لأنها الدرع التي تحمي مصر من ذلك الفتح وتعد خط الدفاع الأول عن وادي النيل وعول سيف الدين ، بعد سماعه تلك التفاصيل ، على العمل بلا إبطاء فاتخذ لساعته قرارا ، وعمد إلى تنفيذه من جميع وجوهه

قال لرسول الناصر :

— عد ياأخى الى من ارسلك وقل له : لبيك ! أن سيف الدين قادم اليك بنجدة سيكتب لها الفوز باذن الله فليجرد قواته للحرب ، واذا خذل فى الميادين فاننا سننثار له ، ونأخذ من الآن على نفسنا عهدا بأن نستخلص الشام من ربة المغول ، كما أننا سننقذ مصر من حكمهم ! اذهب ، رافقتك السلامة !

ثم التفت سيف الدين الى مصطفى الخيال ، وكان أفراد أسرته الثلاثة يحيطون به ، وقال له :

— وانت يا مصطفى ، أسرع الى سيناء واستنفر القبائل هناك للقتال . فاننا سنزحف قريبا لملاقاة العدو ، فتنضم أنت وأسرتك ومن ينضوى تحت لوائكم إلينا فى ذلك الزحف وخاطب المرأة قائلا :

— أن اعتمادنا على النساء لا يقل عن اعتمادنا على الرجال يا بركة ! فمتى اصبح الحمى فى خطر ، وجب على المرأة أن تثبت أنها أخت الرجل ! فسيروا على بركة الله يا بركة ! فانحنت زوجة الخيال ، وقالت :

— سوف ترى النساء فى الميادين يسابقن الرجال فى سبيل مصر !

فرفع سيف الدين ذراعه الى السماء متضرعا هاتفا :  
— الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !  
وردد أفراد أسرة الخيال ، ومن حضر ذلك المجلس حول الأمير الشجاع :

— الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !



ضرب سيف الدين قطز ضربته الأولى فى الداخل ، لينصرف بكليته فيما بعد الى مهمة الدفاع عن مضر ورد الخطر عنها من الخارج

ففى صبيحة يوم من ايام ذى القعدة سنة ٦٥٧ ، الموافقة لسنة ١٢٥٩ للميلاد ، دعا الأمير النائب عن الملك رجال الحاشية وقواد الجيش الى جلسة خطيرة ، ووقف فيهم خطيبا فقال :

— لقد فكرت طويلا ايها الرفاق ، قبل الاقدام على العمل الذى أقدمت عليه أمس . والمصلحة التى وضعتها نصب عينى هى مصلحة مصر وحدها ، مصر التى يجب انقاذها من الغزو وضمان حريتها وعزها ومجدها . لقد استأثرت بالسلطة لنفسى ، ولكننى لا أريد الملك . وجل ما ابتغيه : أن تسيروا معى لملاقاة العدو وصدّه عن مصر فلا يدنس الغزاة أرضها بأقدامهم . ولكم بعد ذلك أن تختاروا الملك الذى تريدون ، فأما أن تخرجوا الملك المنصور نور الدين وأهله من القلعة حيث احتجزتهم ، وأما أن تنادوا بأحد الأمراء أو القواد ملكا عليكم . فالمشيئة مشيئتكم أولا وآخرا وانما الذى أدعوكم اليه الآن ، هو توحيد الكلمة وجمع الصفوف أمام الخطر الداهم . لنقسم فى هذه اللحظة ، أنا سننبذ الحزبية والنعرات الشخصية ، وندفن أحقادنا ، فلا نطاحن : ولا نتناحر ، ولا نتنافس ، ولا يكيد بعضنا البعض ولا يحفظ أحد منا موقدة على أحد . بل نوجه قوانا بأجمعها الى محاربة العدو القادم ، لانقاذ وطننا . ففى اتحادنا خلاصه وفى تفرقنا هلاكه . فأى المصيرين تختارون ؟

فصاح الجميع بصوت واحد :

— الاتحاد والخلاص !

وهكذا بايعوا سيف الدين قطز بالسلطة ، ولقبوه مقدما بالملك المظفر ، وأقسموا أن يتبعوه الى القتال ، فأما حياة عزيزة فى بلد حر ، وأما ميتة كريمة فى ظلال السيوف !

وهتف سيف الدين وردد الحاضرون هتافه :

« نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »



سقطت حلب في قبضة المغول . وتبعتها دمشق وغيرها  
من المعاقل والحصون . وما انتهت سنة ٦٥٨ هجرية ،  
حتى كان هولاء قد أخضع بلاد الشام ، وبلغ غزة هاشم  
على ساحل فلسطين : وتأهب لاجتياز الصحراء قاصدا الى  
مصر ، مطمح الانظار وخاتمة الاهداف

وأوفد الفاتح المتعجرف المنتصر رسله الى سيف الدين  
الملك المظفر ، يدعوونه للتسليم والخضوع ، ويهددونه بالخراب  
والدمار ، وبتحويل النيل الى نهر من الدماء أن هو عمد الى  
التمرد والمقاومة

فأمر الملك المظفر بقتل الرسل ، وعلق رؤوسهم على باب  
زويلة بالقاهرة ، وترك منهم واحدا على قيد الحياة ، ليحمل  
الى سيده خبر ذلك المصير !

ونفخ النافخون بالأبواق ، ونادى المنادون داعين الناس  
الى السلاح ، فأقبل الكبار والصغار على التجنيد اقبالا لم  
يسبق لمصر أن رأت مثله في تاريخها الطويل ، وتناقلت  
اللسنة أقوال سيف الدين بأن القوى لا يفهم لغة غير لغة  
القوة ، وأن الحديد لا يفله غير الحديد ، وأن الراغب في الحرية  
عليه أن يأخذها عنوة لا أن يستجديها استجداء !

واحتشد في مصر جيش ملأ الخواضر والحقول ، والتحق  
بذلك الجيش آلاف من الوافدين على مصر من بلاد الشام  
حيث أبوا حياة ذليلة وخنوعا للفاطحين ، فهرعوا الى مصر  
يحدوهم الأمل في انقاذ وطنهم والعودة اليه معززين  
مكرمين !

وزحف سيف الدين قطز على رأس ذلك الجيش الذي  
تكاتف فيه المصريون وجيرانهم ، وكان هتافهم يصم الأذان  
« الله اكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »



والتحقت بالجيش الزاحف في سيناء كواكب الفرسان

متسابقة من أطراف الصحراء ، وكان يقودها مصطفى  
الخيال وأخوه ، وكانت بركة ووحيدة تقودان كوكبتين من  
فارسات البادية ، وقد امتشقن السيوف وأطلقن حناجرهن  
بالأهازيج الحماسية

وكان المغول قد انتشروا في كل مكان يحرقون ويدمرون  
ويسبون ، وقد اتخذوا مدينة غزة مركزا لهم ومقرا  
لقياداتهم . فكانت أول هدف وثب عليه المصريون وحلفاؤهم  
فانتزعوها من قبضة الغزاة الذين فوجئوا بتلك الضربة  
التي لم يتوقعوها ، فارتدوا الى الداخل ، وصدرت الأوامر  
الى فرقهم المبعثرة بالاحتشاد في السهل المعروف بغور  
بيسان بفلسطين

وحدث في أثناء زحف المصريين أن نشب خلاف بين  
أخوى هولاء في بلاد فارس ، فترك جيشه ، وعهد بقيادته  
الى أشد أعوانه مراسا ، ويدعى كتبوغا شارب الدماء ،  
ورجع ادراجه لاصلاح ذات البين في أسرته

ولحق سيف الدين قطز بالمغول الى موضع احتشادهم ،  
فاصطدم الجيشان في « بيت جالوت » وكان الجيش المصري  
قد انقسم الى فريقين : فريق يقوده الملك المظفر ومهمته  
الهجوم على جيش كتبوغا ، وفريق يقوده بيبرس البندقدارى  
ومهمته مراقبة المعركة من ناحية الشرق ، وولوها عند  
اللزوم

وهجم المصريون مهللين مكبرين : « الله اكبر ! نصر من  
الله لمصر وفتح قريب ! »

وكان ذلك في شهر رمضان عام ٦٥٨ للهجرة ، الموافق  
لشهر التاسع من عام ١٢٦٠ للميلاد . فاحتدم القتال  
وعلا الضجيج ، وكان في مقدمة المغول ثلاثمائة رجل يقرعون  
الطبول ، فعلت عليها أصوات المقاتلين وقعقة السلاح

وصهيل الخيول ، وتمايلت صفوف الأعداء من الصدمة الأولى ، ثم تضعضعت ، ثم أرتد المغول الى الوراء واضطربت كتائبهم ، وفجأة ، ارتفعت صيحات منكرة في ميمنة الجيش وبدأ فرسان المغول يلوون اعنة خيولهم نحو الشرق طالبين النجاة !  
فماذا حدث ؟

حدث أن رأت بركة زوجة مصطفى الخيال ، وهى على رأس كوكبة الفارسات العربيات ، قائد المغول كتبوغاممتطيا صهوة مهر أشهب عرفته هى وعرفته فرسها «محروسة!» ذلك المهر هو « محروس » الذى كان من نصيب القائد المغولى يوم نهبت دمشق واستولى الفاتحون على مرابض الخيل فى قصر الناصر يوسف . فأطلقت بركة فرسها نحو القائد ، وعرف المهر أمه فسهل وانطلق من ناحيته الى الجهة التى كانت بركة وصويحباتها فيها ، تحيط بهن شردمة من فرسان مصر !

حمل المهر فارسه المغولى الى وسط تلك الحلقة بالرغم منه ، فقد جلبت الخرس ابنها اليها ، وجلب المهر معه قائد المغول الى حيث ينتظره الهلاك !

رتب المصريون على كتبوغا يرومون اسره ، ولكنه دافع عن نفسه فأصيب بضربة سيف القته عن صهوة المهر مجندلا على التراب ، وما رأى المغول قائدهم صريعا يتخبط فى دمه ، حتى تولاهم اليأس ودب الى قلوبهم الذعر ، ففروا من الميدان نحو الشرق لا يلوون على شىء !

وتلقفتهم سيوف الفرسان المرتقبين مع بيبرس البندقدارى ففتكت بهم ، فتكا ذريعا ، وانتشرت فلولهم فى الهضاب والبطاح ، وأصدر سيف الدين أمره الى فرسان البادية وفارساتها بمطاردة الهاربين والقضاء على كل من بقى منهم وارتفعت الهتافات من الصدور :

— الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !



كان هولاء قد أخضع الممالك والأمارات في فارس والعراقين وسوريا ، وقوض أركان الخلافة في بغداد ، وقتل الخليفة ، ودوخ الروم والعرب ، ولم يبق له غير بسط سلطانه على مصر ليشمل ملكه الشرق الأدنى بأسره لكن معركة بيت جالوت قلبت ذلك الوضع رأسا على عقب وحولت النصر الى هزيمة منكرة ، فلم يجد هولاء عزاء غير الادعاء بأن جيشه لم يهزم الا لأنه لم يكن هو على رأسه وان المنجمة لم تكذب عندما قالت أن المغول لن يقهروا ما دام يقودهم هولاء !

وواصل سيف الدين قطز زحفه الى الامام فاستخلص أرض الشام بأسرها ، وأعاد اليها الطمأنينة والامان . وبدأت أوصال الامبراطورية المغولية العظمى تتفكك شيئا فشيئا وأطرافها تنكمش ، وعاد الملك المظفر على رأس جيشه الى وادي النيل ، بعد أن أنقذ الشرق من الغزاة الاغراب الفاتحين ، فاستقبل الشعب المصري أبناءه البواسل بالترحيب والتهتاف ، وأدرك معنى الوحدة والتكاتف والتساند ، وظل النيل المبارك يجري هادئا بين ضفتيه الخضراوين ، وقد اطمأن الناس ، وغاب عن مصر شبح الغزو ، وتجاوبت في المدن والقرى والمزارع والحقول تلك الادعية التي مشى المصريون على انغامها الى القتال فالفوز ، والتي انطلقت من أفواه الشيوخ والاطفال ، والرجال والنساء على السواء :

— الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !



# نساء القاهرة

كل جهاد يشترك فيه الرجال عمل  
رائع ، ولكن اروع منه جهاد تمشي فيه  
النساء جنباً الى جنب مع الرجال

التقى الجيش العثماني الزاحف من الشمال ، والجيش  
المصري القادم من الجنوب ، بالقرب من مدينة حلب ، في  
السهل المعروف بمرج دابق . وقاتل المماليك بقيادة سلطان  
مصر الشيخ الصنديد « قانصوه الغورى » قتال النمرور  
الضارية والاسود الهائجة . وارتجت الارض من ضرب  
خوافر الخيل ضرب المطارق على السندان . وتسابق  
الابطال للقاء المنية في حومة الوغى ، تجنباً لعار الهزيمة امام  
الجحافل العثمانية المتدفقة على السهل كالسيل الجارف .  
وتكدست اشلاء القتلى والجرحى في فيض من الدماء .  
وقذفت مدافع السلطان « سليم خان » الاول الحمم من  
فوهاتنا ، وكان ذلك اول عهد المماليك بهذا السلاح الفتاك ،  
فقد كانوا يستخفون به ويأنفون من استخدامه ، لانه يتنافى  
مع الفروسية الحققة ، ويحول دون لقاء الفرسان وجهالوجه  
وصدرا لصدر في غمرة الميدان !

ودارت الدائرة في النهاية على جيش المماليك ، فتراجع  
الاحياء منهم عازمين على جمع شملهم من جديد عند حدود  
مصر . وقتل الملك الاشرف قانصوه الغورى في المعركة .  
وكان ذلك في سنة ١٥١٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٢١ هـ  
ودخلت سوريا في حوزة السلطان العثماني . وواصل  
الفاتح المحظوظ زحفه جنوبا ، ووجهته سيناء ، وارض  
وادي النيل



وصلت انباء الكارثة التى حلت بالجيش فى « مرج  
دابق » الى القاهرة ، فعم الحزن ولكنه لم يبلغ مبلغ اليأس .



جالد امراء الممالك انفسهم ، والتفوا حول « طومان باى »  
ابن اخى السلطان الفورى ، الذى كان قد استخلفه قبل  
رحيله وعينه نائبا على المملكة ، فبايعوه باسم « الملك الاشرف »  
أيضا والقوا اليه مقاليد الامور ، واقسموا له يمين الطاعة،  
وألحوا عليه بأن يقودهم الى قتال الغزاة

وتريث « طومان باى » فى بادىء الامر ، وجعل يستطلع  
اخبار عدوه ويرقب حركاته وسكناته . ولم يطل انتظاره،  
فقد وفد على القاهرة ذات يوم رسل السلطان يعرضون  
على الملك الاشرف معاهدة صلح ، يعترف فيها بسيادة  
سليم الاول ، والدعوة له على المنابر ، وبضرب عملة باسمه .  
فكان رد طومان باى : « قولوا لمولاكم ان السيف خير حكم  
بينى وبينه ! »

وقرر فى الحال ان يزحف لملاقاة الجيش العثمانى ، بدل  
أن ينتظر قدومه فى عاصمة ملكه

وكانت جلسة مشهودة تلك التى دعا اليها « طومان باى »  
قواد جيشه ، الامراء والفرسان ، واعيان البلاد  
وحكام الاقاليم ، ليأخذ موافقتهم على ما أقدم  
عليه من رفض شروط الصلح المعيب . . فقد لبي  
الجميع الدعوة . ووافدت المدن المصرية واحياء العاصمة،  
وطوائف الشعب المختلفة ، مندوبين عنها لاعلان تأييدها  
للملك الاشرف ، واستعدادها للبذل والتضحية فى سبيل  
حرية البلاد وصيانة كيانه . فقد كان الممالك طغاة فى  
حكمهم ، وكثيرا ما كان الشعب يئن من ظلمهم ، ولكنهم كانوا  
يدودون عن استقلال مصر ، ويتحلون بالشجاعة والبطولة  
ويعنون بأعمال التعمير والانشاء ، ويشيدون المساجد والمعاهد  
فكان الشعب يكرهم ويحبهم فى آن معا . ولهذا مشى معهم  
لصد الغزاة العثمانيين فى عهد الفورى وطومان باى ، كما  
مشى معهم من قبل لصد الغزاة الصليبيين والمغول والتتر

طاف المنادون في كل مكان يدعون الناس الى حمل السلاح،  
لا فرق بين سيد وخادم ، وبين حر ورقيق . فان طومان باى  
أصدر قرارا بأن يعتق العبيد جميعا ليصبحوا احرارا في  
بلدهم على شرط ان يقاتلوا في سبيل حريته . وفتحت  
مستودعات الاسلحة فوزعت على الناس جميع الادوات  
الصالحة للضرب والقتل . . .

وتمت للملك الاشرف تعبئة الجيش والشعب معا . وعزم  
على مغادرة القاهرة مع قوة من اربعين الف مقاتل ، على أن  
تلحق به النجيدات فيما بعد ، وان يتولى الفتيان ابناء  
الممالك تحصين القاهرة وتموينها ، استعدادا لايام سود ،  
اذا قدر الله ان يفلت النصر من اليد ، وتواجه المدينة هجوما  
او حصارا . . .

وفي فجر اليوم المحدد للزحف ، صحا « طومان باى »  
على أصوات جلبة وضوضاء في القصر : انها اصوات نساء ،  
وجلبة وضوضاء تتخللهما الاهازيج والزغاريد !

انه رهط ، بل فوج ، بل جيش من النساء ، يقتحمن  
القصر صارخات هاتفات ، تتقدمهن امرأة فارعة القامة  
مفتولة العضلات جهورية الصوت ، تتأبط ذراع فتاة شديدة  
الشبه بها ، تشهر يمينها سيفا مسلولا ، وتحمل بيدها  
جرابيا من الجلد الاحمر الموه بالرسوم . . .

وكان حراس القصر يسرون مع النساء مختلطين بهن ،  
وقد علا وجوههم البشر ، وراحوا مثلهن يهتفون ويهزجون  
وما وقع نظر طومان باى على ذلك المشهد ، حتى انطلق  
من بين شفتيه اسم ، تلاه اسم آخر : « شريفة ؟ . .  
سليمة ؟ »



من هي « شريفة » ومن هي « سليمة » ؟  
الاولى هي المرأة الفارعة القامة ، المفتولة العضلات ،

الجهورية الصوت ، والثانية هى الفتاة شاهرة السيف  
وحاملة الجراب ...

كانت « شريفة » تعيش مع زوجها « الشيخ حسن الصافي »  
من عربان البحيرة ، ومن تجار الاغنام ومروضى الخيول  
ولم يكن للزوجين غير ابنة وحيدة ، اوشك مجيئها الى  
العالم ان يودى بحياة امها فسميت « سليمة » وكان الشيخ  
البدوى يملك ثروة طائلة . فقرر به واحد من امراء الممالك  
يدعى « خير بك » وشاركه فى صفقة تجارية سرق فيها  
أموال شريكه ، ولما حاول الشيخ المغبون ان يطالب بحقه ،  
ويسترجع ماله ، ارسل اليه خير بك عصاة من زبائنه  
فقتلوه واستولوا على البقية الباقية من خيوله ومواشيه .

وكان « خير بك » فى عهد « قانصوه الغورى » قد عين  
حاكما لمدينة حلب ، وقلب لولى نعمته ظهر المجن فخانه  
وانضم الى عدوه السلطان العثمانى ، مع خائن آخر يدعى  
« الغزالى بك » . ولولا خيانة الرجلين لاستطاع « الغورى »  
ان يحرز النصر فى « مرج دابق » ، او - على الاقل - ان  
يوقف زحف العثمانيين على مصر ...

وفى الوقت الذى كان فيه قانصوه الغورى مهموم البال  
منهمكا فى اعداد العدة لمواجهة الخطر الداهم ، لجأت اليه  
« شريفة » ارملة حسن الصافي ، وابنتها سليمة ، بعد ما حل  
بهما الخراب وامتدت ايدى القتلة الى الشيخ البدوى  
وانتزعت حياته . ولم يكون فى وسع قانصوه الغورى ان  
يثأر للمرأة وابنتها ، او ان يسترجع لهما ما فقدناه ، فالسارق  
بعيد عن مصر ، وخارج على طاعة سيده ، والقتلة الجناة  
قد اختفوا وفروا هاربين الى من حرضهم على القتل . .  
فاستضاف السلطان الغورى زوجة الشيخ القتيل وابنته ،  
وانزلهما فى قصره ، واوصى ابن اخيه بهما ، فعهد اليهما  
« طومان باى » بادارة شئون القصر ، والاشراف على جناح

الحريم فيه . وكانتا جديرتين بالثقة ، حافظتين للمعروف ،  
متفانيتين في خدمة الرجلين اللذين احسنا اليهما : الملك  
الاشرف قانصوه الغورى ، وابن أخيه الملك الاشرف  
طومان باى

ولما أدلهم الخطب واحاطت بمصر المخاطر ، نادت  
« شريفة » وابنتها « سليمة » نساء القصر ، وأهابتا بهن  
قائلتين : « على النساء أن يرتفعن في هذه المحنة الى مصاف  
الرجال ، واذا كان الآباء والأزواج والأبناء قد انتضوا  
السلاح ومشوا الى الميادين ، فعلينا نحن أيضا - نحن  
الامهات والزوجات والاخوات - ان نلحق بهم ، او نشد  
أزرهم ، أو نحمى ظهورهم ! »

ولقى هذا النداء آذانا صاغية ، فتشاورت النساء فيما  
بينهن ، واوفدن رسولات الى أحياء العاصمة ومدن الاقاليم ،  
وما جاء ذلك الجمع منهن الى قصر الملك الاشرف ، ومادوت  
تلك الاصوات بالهتاف والتهليل ، وما انطلقت الاهازيج من  
فم شريفة ، وما رفعت سليمة يمينها سيفا وحملت  
بيسارها جرابا من الجلد الاحمر ، الا لبلاغ طومان باى ما  
قر عليه رأى النساء فى مملكته : مشاركة الرجال فى الدفاع  
عن الوطن ، والسير الى القتال معهم جنبا الى جنب !

وكان الجراب الاحمر فى يد سليمة مطويا على مفاجأة  
من نوع غير مألوف . فقد فتحته الفتاة ، وتناولت من داخله  
حبلا اسود اللون ، وقدمته الى السلطان الاشرف قائلة :

- أيها البطل الذاهب الى القتال على رأس جيش من  
الابطال ... ان شريفة زوجة حسن الصافى ، وابنتها سليمة ،  
تهديانك باسم نساء القصر ، وباسم نساء مصر ، هذا العنان  
لفرسك ، مصحوبا بدعائنا لك بالنصر !

أخذ طومان باى الرسن من يد الفتاة ، وقد ارتسمت  
على وجهه امارات الغبطة المزوجة بالدهشة :

فقد اغتبط لما اظهرته النساء من حمية ونخوة وشهامة  
ولكنه دهش لانه لم يدرك معنى الهدية الغريبة : عنان فرس  
مصنوع من خيوط دقيقة سوداء !

غير ان الدهشة لم تطل : فقد كشفت الام عن رأسها ،  
وكشفت الفتاة عن رأسها أيضا ، واذا بالرأسين لا شعر  
فيهما . . !

ان « شريفة » زوجة « حسن الصافي » قد جزت شعرها  
وجزت سليمة أيضا شعرها ، ومن تلك الشعور السوداء  
جدلت المرأتان عنانا لفرس الملك الاشرف !



أبت الاقدار الا ان يكون طومان باي سيء الحظ كعمه  
قانسوه الفورى ، فبالرغم من استبسال المماليك فى القتال ،  
وبالرغم من النجذات التى زحفت اليهم من القاهرة ، لم  
يستطع أولئك النجعان الميامين ان يوقفوا تدفق الجحافل  
الجرارة التى جاء بها سليم الاول لفتح مصر ، وجاء معها  
بعضرات من المدافع الضخمة ، والاسلحة النارية العديدة .  
فكثرة العدد ووفرة السلاح ، تضاف اليهما الخيانة التى  
دبت عقاربها فى صفوف الأمراء النفعيين المتزلفين ، كل ذلك  
قد تحالف على جيش المماليك ونجذات الأهالى ، فدارت  
الدائرة على طومان باي ، وسقط فى المعركة ، على مسافة  
من العاصمة ، خمسة وعشرون الفا من الفرسان المغاوير ،  
وفتحت طريق القاهرة أمام الغزاة الزاحفين . . .

وكان فتیان المماليك ، والشيوخ والصبيان ونساء  
العاصمة وفتيانها ، قد انصرفوا الى اقامة المتاريس ، وحفر  
الخننادق ، وغرس الأوتاد فى الطرقات ، وسد الخوازيق  
والازقة ، وجمع الحجارة على سطوح المنازل ، وتكديس  
الاشخاب فى الميادين لاضرام النار فيها ، ولما وصلت فلول

الجيش المنهزم ، وانضمت الى السكان للدفاع عن المدينة، كانت القاهرة قد تحولت الى حصن منيع ، لايسهل لجيش مهما كان قويا الاستيلاء عليه بدون اراقة دماء غزيرة

وكانت معركة رائعة . وكان القتال مريرا استمر ثلاثة ايام بلياليها . فقد اضطر السلطان العثماني ان يقف جيشه عند مشارف المدينة ، وأن يتقدم به خطوة خطوة ، ويهاجم العاصمة المصرية شارعاً فشارعاً ، وحارة فحارة ، وبیتاً فبیتاً وباباً فباباً. ولم تكن النساء أقل شجاعة من الرجال في الدفاع عن حماهن . فان طوافهن في المدينة وتحريضهن الناس على القتال ، ضاعف الحماسة في النفوس . والزيت المغلى الذى كن يلقينه على الاعداء من نوافذ البيوت ، والحجارة التى كن يقدفنها بها من فوق السطوح ، والادوات المنزلية التى كن يستعملنها سلاحاً في ايديهن الناعمة ، والاهازيج الحربية التى كن ينشدنها بأصواتهن العذبة ، كل ذلك انزل بالمهاجمين خسائر فادحة ، فبيعت الحرية بثمن غال ، مما جعل السلطان العثماني بعد فتح مصر يقول : « ما رايت بعد شعباً اشجع من هذا الشعب ، وما لقيت في فتوحاتي مقاومة مثل هذه المقاومة ، وما ظننت يوماً ان جيشي سيحارب ثلاثة ايام جيشاً معظمه من النساء والاطفال ! »

خمسون الفا من سكان القاهرة سقطوا في ساحة الشرف، في تلك المعركة الهائلة ، نصفهم من النساء المحاربات . فقد ابت كل زوجة ، وكل أخت ، وكل ابنة ، ان يقدم ابوها او أخوها او زوجها نفسه قرباناً على هيكل الحرية ، وتظل هى قابعة في عقر دارها وقد خلت الدار من ربها ! واذا كانت شجاعة النساء ، فضلاً عن بطولة الرجال ، لم تنقذ القاهرة من المصير الذى ارادته لها الاقدار ، فقد كان سقوطها ، في ذلك الجو من البطولة ، سقوطاً مشرفاً لا عار فيه ، ولا شئار !



فر طومان باى الى الصعيد مع فريق من فرسانه ،على أمل أن يعاود الكرة لانقاذ العاصمة . ولكن الخيانة لحقته على الاثر ، فسلمه جماعة من انصاره الى عدوه . وبعد ان قرر السلطان العثماني ان يبقى على حياته اعترافا بما ابداه من شجاعة واقدام ، عاد فعدل عن رأيه ، وأمر بأن يشنق البطل : وكان المحرضان على هذا الانتقام البشع ، الخائنات خير بك والغزالي بك ، اللذان رافقا الفاتح في زحفه ، لينالوا منه المكافأة على خيانتهم

وفي الرابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٥١٧ ، الموافق للتاسع من شهر ربيع الاول سنة ٩٢٢ ، نفذ الامر الهمايوني ، وشنق طومان باى تحت قنطرة باب زويلة بالقاهرة

وفي مساء ذلك اليوم ، حاولت جماعة من النساء النادبات خطف الجثة ، فقتلن الجند ومثل بهن : ولم تكن تلك النادبات غير شريفة زوجة حسن الصافي ، واننها سليمة ، وبعض نساء القصر ، وبينهن احدى زوجات الملك الاشرف .

وفي اعلى قنطرة باب زويلة ، حلقة من الحديد في شكل كلابة ، لا تزال في مكانها الى الآن : تلك هي المشنقة التي علق فيها طومان باى بأمر من السلطان سليم خان الاول . وقد ظل الناس مدة من الزمن يسمونها : « حلقة طومان »





# فاجعة في مهرجان

كان عبدا رقيقا ، فانتزع حرته  
انتزاعا من بين مخالف الاسد !

شهدت مدينة الاسكندرية في صيف ٢٧٥ قبل الميلاد  
مهرجانا فخما دام عشرين يوما . و امر « بطليموس الثانى »  
بأن توزع النقود والمؤن على الفقراء بلا حساب ، وان تبسط  
الموائد فى الشوارع والميادين كى يأكل الناس ويشربوا على  
انغام الموسيقى ، فقد أقيم ذلك المهرجان احتفالا بزواجه  
للمرة الثانية ، اذ كان قد غضب على زوجته الاولى - وكانت  
غريبة عن اسرته - فطلقها وارسلها الى المنفى ، ثم تزوج  
أخته التى عرفت فى التاريخ باسم « ارسينوى الثانية »  
وكان زواج الأخ بأخته من العادات المألوفة عند البطالسة  
وغيرهم فى ذلك العهد

أما بطليموس الثانى هذا فقد عرف باسم « فيلادلف »  
أى المحب لآخوته ، لانه قتل منهم اثنين عندما اعتلى  
عرش مصر !

وأرادت الملكة الجديدة ان تزيل من القصر كل اثر للزوجة  
السابقة ، فأبعدت عنه جميع الخدم والعبيد والجواري  
والوصيفات ، وجاءت باشخاص تثق بهم وتطمئن اليهم ،  
حتى لقد طلب اليها زوجها ان تبقى فى خدمتها واحدة فقط  
من وصيفات زوجته الاولى فرفضت ، فأرسل بطليموس  
يستدعى تلك الفتاة لينظر فى أمرها ، اذ كان يعطف عليها  
عظفا خاصا ، لان أباهما انقذه مرة من الفرق وراح ضحية  
شهامته ووفائه . . .

كان اسمها « عمرة » . وهى ابنة رجل عربى من قحطان ،  
جاء به بطليموس من البلاد الواقعة شرق نهر الاردن ، حيث  
كان يشتغل بتجارة الخيول بين تلك البلاد وصحراء العرب ،  
وعهد اليه فى الاشراف على خيول القصر والحرس ، وتربيتها

وترويضها الى ان مات تاركا ابنته الوحيدة امانة في عنق الملك ، وكانت في عنقوان الشباب ، بارعة الحسن ، سمراء اللون ، سوداء الشعر والعينين ، فتولى بطليموس امرها ، وجعلها أولى وصيفات زوجته ، فكانت مثال الولاء والاخلاص ...

أطلعها بطليموس على قرار زوجته الثانية بإبعادها عن القصر ، وقال انه سيبحث بها وديعة الى أية اسرة تختارها من أسر القواد والحكام ، فبكت وطلبت اليه ان يعيدها الى البلاد التي جاءت منها ، لكي تبحث عن أهلها وذويها، وتقضى حياتها بين ظهرانهم حرة من كل ضغط و قيد وأجابها الملك الى رغبتها ...



كانت عاصمة البلاد الواقعة عبر الاردن تدعى « ربة عمون » منذ اقامة العمونيين فيها وانشاء دولتهم في تلك البقاع الوعرة . وقد خربها الملك داود، واجتاحها الاشوريون، ودكت معالمها للمرة الثالثة في الحروب التي نشبت بين خلفاء الاسكندر المقدوني بعد وفاته . وعندما قسم قواد الفاتح العظيم ملكه الشاسع ، آلت بلاد الأردن الشرقية الى البطالسة الذين تبوأوا عرش مصر ، واتخذوا الاسكندرية عاصمة لملكهم ، وهكذا جلست على عرش مصر اسرة غريبة اخرى ، حكمت البلاد بضع مئات من السنين . وكانت الاسكندرية عروس حواضر الشرق ، تزدهر بميادينها وشوارعها ، وبالمنارة القائمة على صخرة « فاروس » عند مدخل الميناء ، تلك المنارة التي عدت فيما بعد احدى عجائب الدنيا السبع

ووجه بطليموس الثانى عناية خاصة الى « ربة عمون » فأعاد بناء أسوارها وقصورها على قمة الجبل ، ومعابدها وهياكلها فى الوديان ، والملاعب الفسيح المنحوت فى سفح تل

صخرى ، ثم اطلق عليها اسمه ، فعرفت منذ ذلك الوقت باسم « فيلادلفيا »

وفي أثناء زيارته للمدينة الجديدة أهدها « سيور » أبو عمرة فرسين عربيين أصيلين ، فقبلهما بطليموس ، واصطحب معه الرجل وابنته الى الاسكندرية فأقاما فيها الى أن كان ما كان ..

وعندما طلبت « عمره » أن تعود الى شرق الأردن لتلحق من هناك ببني قومها وتستعيد حريتها ، كان الملك يعد العدة لإيفاد بعثة من عظماء الدولة في موكب كبير الى فيلادلفيا ، لأحياء الحفلات فيها أسوة بعواصم بقية الأقاليم الخاضعة له ، بمناسبة زواجه . فالتحقت عمرة بالموكب مزودة بالمال والهدايا



هبط سكان فيلادلفيا من أعالي الجبل الى قاع الوادي حيث أعدت العدة لإقامة المهرجان في الملعب الفسيح . فأخذ الحكام والقضاة والكهنة أماكنهم في الشرفة الاولى ، واعتلى الشعب المدرج فملأها على سعتها ، وانشر الذين لم يجدوا لهم مكانا في الملعب على المشارف المجاورة ، وهي ستة تلال تحيط بالمدينة وتنساب بينها مياه الغدير العذبة ، مفردة على حصي الوديان ، ساقية أنواعا عديدة من الأشجار والرياحين .. وجلست عمرة مع الجالسين في الشرفة الاولى مع رسل بطليموس ورجاله القادمين من مصر ، يتصدرهم رئيس تلك البعثة « فيليب القبرصي » القائد المحنك الذي تولى إخضاع القبائل في التخوم الشرقية

وكان برنامج الحفلة رائعا .. فقد تتابعت في حلبة الملعب جماعات من الموسيقيين والمغنين والشعراء والمنشدين ، كل منهم يعزف على آلة أو يترنم بأغنية ، أو يتلو قصيدا أو يرتل نشيدا ، وتشابك الراقصون والراقصات في حركات

فنية بديعة على انغام القيثارة والمزمار ، وتبارز ارباب السيوف  
والرماح فقتل منهم من قتل وجرح من جرح ، وتصارع  
المتصارعون ففاز منهم من فاز ، ونقل المغلوبون الى الخارج  
وقد تفككت مفاصلهم وسحقت عظامهم ، وعرض المروضون  
كلابهم وقرودهم وحميرهم وجاء رجل فينيقي بدب اسمر  
يلعب بالسيف والترس ، وتبارى الفرسان العرب على متون  
جيادهم الاصيله التي حملتهم من بطن الصحراء للاشتراك  
في ذلك المهرجان

وكانت خاتمة هذه المشاهد منازلة رجل افريقي لاسد  
هائج . فقد وقع ذلك الرجل في الاسر وهو على رأس عصا  
من اللصوص عاثت في صحراء مصر فسادا فحكم عليه  
بالاعدام . لكن الرجل اقترح ان يوضع وجهها لوجهه مع  
الوحوش الكاسرة ، فاما ان تفرسه وينتهي الامر ، واما  
ان تغلب عليها فيظل على قيد الحياة حرا طليقا . وانقضت  
ثلاثة أعوام على اقامته في الاسكندرية ، تغلب فيها على أربعة  
أسود ونمر وضبع وخمسة ذئاب . واراد بطليموس ان  
يساهم قاتل الوحوش هذا في مهرجان فيلادلفيا فأرسله اليها  
مع بعثته ، ليصارع اسدا هائجا فيقتله أو يلقي في المصارعة  
حتفه ! ...

نزل الرجل الى حلبة الملعب عارى الجسم لا يستر  
عودته غير خرقة حمراء وفي يمينه خنجر صغير ، وقد لف  
ذراعه اليسرى بقطعة من الجلد المتين واطلق الاسد من  
قفصه الحديدى ، فاندفع في الحلبة ثائرا مزمجرا ، وعلت  
اصوات المشاهدين داعية الزنجى الافريقى الى الحذر ورباطة  
الجأش ، وضاعفت الاصوات غضب ملك الغابات فارتفع  
زئيره المخيف وبعث الرعب في النفوس ، وراى الزنجى يقترب  
منه مقلدا زئيره ، فضرب الارض بذيله ، ونفض ذؤابته ،  
ووثب نحو فريسته مكشرا عن أنيابه ...

ولكن الرجل تلقى الصدمة بذراعه اليسرى ، وجعل

يلعب الاسد كما يلعب القط الفأر ، فكان المشهد هائلا لم  
تقع أعين سكان فيلادلفيا من قبل على مثله . وما هي الا  
دقائق معدودة ، حتى تمكن الرجل من تسديد طعنة من  
خنجره الى عنق الاسد ، فسال على الارض دمه ، وبلغ  
هياجه مبلغا عظيما ، فدار حول الحلبة قفزا وعدوا ، حتى  
اذا ما وصل أمام الشرفة الاولى حيث مندوب الملك وحاشيته  
تحفز فجأة ووثب وثبة زاداها الالم قوة واندفاعا ، فبلغ  
حافة الشرفة وانشب مخالبه في صدر « عمرة » ولكنه لم  
يتمكن من التعلق بها فسقط على ظهره ، وكان الزنجي قد  
أسرع اليه رافعا خنجره فأغمدته في عنقه مرة ثانية فثالثة ،  
فلهث وتدفق الدم من فمه بينما وضع الزنجي قدمه على  
رأسه حتى أصبح جثة لا حراك فيها ! وظل الزنجي حسب  
الوعد حرا طليقا

لكن الذعر كان قد استولى على الناس فعلا الهرج والمرج ،  
ولم يصفق للفائز غير فريق من المشاهدين بينما كان الباقون  
يسرعون نحو الابواب طلبا للنجاة ، ظنا منهم أن الاسد قد  
تسلق المدارج . . وأحاط رفاق « عمرة » بالفتاة الجريح  
يحاولون مبادرتها بالاسعاف ، ووقف نزيف الدم من صدرها  
الذي مزقته مخالب الاسد !

لكن محاولتهم ذهبت سدى . فقد اسلمت المسكينة  
الروح في زفرة تقطع الكبد . وماتت في اللحظة التي كان  
الزنجي يضرب فيها ضربته القاضية . فخرج الناس من الملعب  
واجمين ، وانتهى المهرجان بمأتم مشى فيه فيليب القبرصي ،  
ووراءه الكهنة وخادמות الهياكل وسكان فيلادلفيا حاملين  
المباخر والازهار ، فأودعوا « عمرة بنت سيور » العربية  
مرقدتها الاخير ، في ظل عريشة وارفة على ضفاف الغدير . .  
مات الاسد ، ولكن بعد أن انتزع من الفتاة روحها ،  
وبعد أن انتزع العبد الاثريقي حرите من بين مخالبه !



# القميص الأبيض

كان الفراغة والملوك البطالسة في مصر  
يصنعون لأنفسهم ، ويهدون إلى أصدقائهم  
قمصانا من خيوط القطن البيضاء ،  
ويعدون منها أكفانا للرقدة الأخيرة

— على بالنساء جميعا ، الوصيفات والساقيات والنديمات  
على السواء ، فأئننى فى حاجة اليهن يا شرميون : أرغب فى  
الإفشاء على مسامعهن بأمنية لا شك عندى فى أنهن سوف  
يساعدننى على تحقيقها ، قبل رحيلى عن مصر بعد بضعة  
أيام

وأسرعت « شرميون » ، وصيفة كليوباترة المختارة ،  
الى تنفيذ أمر مولاتها ، فنادت رفيقاتها وصويحاتها من  
نساء القصر : ايلينا ، وهاستيا ، ورينابوث ، وفوتينا ،  
وغيرهن من مصريات ويونانيات ، فانتظمن فى حلقة زاهية  
ضاحكة ، على شرفة القصر المظلة على مياه البحر الزرقاء  
فى الاسكندرية ، حول كليوباترة المستلقية على وسائد  
أريكتها ، فى ثوبها الشفاف ، وبجانبها الفهد الأليف الذى  
جاءها به جنودها هدية من كهوف النوبة ، يوم وصول  
يوليوس قيصر الى العاصمة المصرية  
وقالت الملكة المستهترة :

— اخواتى ، انكن أحب الناس الى . بكن اثق وعليكن  
أعتمد فى السراء والضراء . وقد دعوتكن اليوم لأطلعكن على  
ما اعتزمته ، وأطلب منكن تحقيق رغبة نبئت فى صدرى  
الليلة ، وأنا ساهرة فى مخدعى ، فهل لكن أن تصفين الى  
وتجبننى الى ما أريد ؟

فأنطلقت من بين شفاه النساء الأرجوانية كلمة واحدة  
ترددت وتكررت كتغريد العصافير :

— نعم ، نعم ، نعم !..

واستطردت كليوباترة تقول :

— لقد أحببت قائد الرومان قيصر العظيم ، وأحبني  
قيصر كما تعلمن حبا جامحا قويا ، سيطر على أعماله  
كلها وملك قيادى فخضعت له خضوع الأسير لأسره .  
ولكن القائد المحبوب بعيد عنا الآن ، يواصل مطاردة خصومه  
والقضاء على منافسيه فى أطراف الدولة الرومانية الشاسعة  
حليفتنا العزيزة . ومنذ أيام ، تلقيت منه خطابا يدعونى  
فيه الى اللحاق به فى روما . ولا يسعنى الا أن أرضخ  
لأرادته ، فهل تنصحنى بالذهاب ؟

وانطلق التفريد مرة أخرى من بين الشفاه الحمراء :  
— نعم ، نعم ، نعم !..

وارتسمت على ثغر الملكة ابتسامة الرضى والارتياح ،  
وعادت تقول :

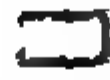
— سأذهب اذن . وسأحمل معى كل ما يمكن أن تسعه  
السفينة من هدايا مصرية لقيصر المنتصر . غير أن هناك  
هدية ستكون على ما أعتقد أحب الهدايا اليه : فقد فكرت  
فى أن نصنع له قميصا من خيوط القطن المصرى البىضاء  
يرتديه تحت حلتة الرومانية الفضفاضة ، فيفكر فىنا كلما  
تسربل به ، ويذكرنا كلما خلعه عن نفسه ، ولكن أين هذا  
القميص أيتها الاخوات العزيزات ؟ أن الخيوط القطنية  
الرقيقة البىضاء لفى انتظار الانامل التى تحوك سداها  
ولحمتها ! وقد أزف موعد الرحيل وسوف أبحر من  
الاسكندرية بعد ثلاثة أيام ! فهل أناملكن الناعمة على  
استعداد لصنع هذا القميص الناصع ، قبل حلول الساعة  
التي تطلع فيها السفينة ، من الميناء ؟

وللمرة الثالثة ، غردت الشفاه الحمراء :  
— نعم ، نعم ، نعم !..

ونفضت كليوباترة فرحة مهللة :

— لنعمل اذن أيتها الصديقات الحبيبات ، وسوف تكون

أنامل ملكتك العاشقة أبعد الأنامل دقة ، وأكثرها سرعة ،  
في حياكة القميص المنشود !



في ٩ أغسطس سنة ٤٨ قبل الميلاد ، هزم « يوليوس قيصر » خصمه « بومبيوس » في معركة « فرسال » ، ولحق به الى مصر حيث لجأ القائد الهارب الى الملك « بطليموس ديونيزوس » ، فقتله الملك وأرسل رأسه الى قيصر ليسترضيه . ولكن القائد العظيم هالته هذه الخيانة ، فعزم على الاقتصاص من القاتل ، وانقسم المصريون الى فريقين ، وانتهى الامر بأن هلك « ديونيزوس » غرقا ، وأجلس يوليوس قيصر على عرش مصر أخته كليوباترة وشاركها في الملك أخوها الثاني « بطليموس الطفل » الذي عقد زواجه عليها ، عملا بالتقاليد المرعية في ذلك الوقت !

وكانت الملكة في الحادية والعشرين من العمر ، والملك أخوها وزوجها في السادسة فقط ! ولم تكن كليوباترة الطموحة لتحسب حسابا لهذا الشريك في عرش عولت على الاستئثار به دون أفراد أسرتها جميعا ، فاعتزمت منذ تلك اللحظة أن توقع الروماني المنتصر في حبائل غرامها وأن تتحكم بقلبه ومن ثم بمصيره ، ثم تتخلص بمساعدته من الاخ الصغير الضعيف !

ووقع يوليوس قيصر في الشرك الذي نصبته له الحسناء المتوجة ، فأحبها ، وهو الكهل البالغ الثالثة بعد الخمسين من العمر ، وأصبح لا يطيق صبرا على فراقها

ولبست الاسكندرية ، بأمر من الملكة ، حلة الافراح والاعياد وشاهدت تلك العاصمة المصرية ، التي اتخذها العاشق الروماني الكهل ، والعاشقة الصبية ، مسرحا لغرامهما العجيب ، أروع مظاهر اللهو ، وأبهج الليالي الملاح

ولكن القائد اضطر اضطرارا الى الرحيل عن مصر لمواجهة  
الاطار المحدقة ببلاده ، وقمع الثورات القائمة في بعض  
اقاليمها ، فعز عليه الفراق ، وأوفد الرسل بعد الرسل  
الى حبيبته البعيدة ، لتلحق به في روما العاصمة



وأبحرت كليوباترة ملبية ندائه ، في سنة ٤٥ قبل الميلاد  
بعد أن تخلصت من أخيها الزوج بالسم ، وأحلت محله على  
العرش طفلا « قيصر » ثمرة غرامها الرومانى ، حاملة  
معه الهدايا الثمينة ، ومن بينها القميص الأبيض ، الذى  
حاكته أناملها وأنامل وصيفاتها من خيوط القطن المصرى  
في ثلاثة أيام !

— أنها لهدية ايها الحبيب سوف تذكرك بالحبيبة في  
صحوك وفي نومك ، سواء أكانت كليوباترة بجانبك أم بعيدة  
عنك ، لان هذه الهدية ستلازمك أكثر من ظلك ، فتلامسك  
وتلامسها في الليل والنهار !

وعانق يوليوس قيصر عشيقته وأنهالت عليها قبلاته  
الحارة ، وقال بصوت تخنقه العبرات :

— وانها آيتها الحبيبة لأعز الهدايا لى . فسوف ألبس  
هذا القميص الذى ساهمت أناملك في حياكته ، وأباهى  
به ، وأعده ليكون لى في نهاية العمر كفنا يلفنى في طريقى  
الى العالم الآخر !

ونزلت ملكة مصر في قصر أعده لها سيد روما على ضفاف  
نهر التيبر ، وأراد أن يحاكي البذخ فيه بذخ القصور  
المصرية على شاطئ الاسكندرية وضفاف النيل ، وشاهدت  
العاصمة الكبرى بدورها — وقد اتخذها العاشق الرومانى  
الكهل ، والعاشقة الصبية ، مسرحا لغرامهما العجيب —

ما شاهدته العاصمة المصرية قبل ذلك من مظاهر اللهو  
والليالى الملاح !

وخيل للعاشقين ان الدهر لا يعد لهما غير السعادة والهناء  
وفاتهما أن الدهر غادر لئيم ، وأن السعادة لا تدوم ، والهناء  
لا بد أن يتبعه شقاء !



فى الخامس عشر من شهر مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد ،  
ذهب يوليوس قيصر كعادته الى مجلس الشيوخ الرومانى ،  
وقد أعد عدته لمواجهة الحملة التى قيل له أن خصومه من  
أعضاء المجلس سوف يشنونها عليه ، لمحاسبتة على أعمال  
القسوة التى ارتكبها ضد الشعب ، وعلى الانحلال الخلقى  
الذى يبدو منه ، فى سلوكه مع الملكة الغريسة التى نسي  
واجبه بين أحضانها !

ولما هم بدخول قاعة المجلس ، دس رجل مجهول فى يده  
ورقة سنطرت فيها كلمات التحذير من مؤامرة دبرت  
لاغتياله . ولكن القائد المتكبر لم يأبه بالتحذير ولم يكثرث  
ووقف صامدا متعجرفا يرد على التهم ويفندها ، حتى اذا  
ما اقترب منه المتآمرون وأحاطوا به ، وقدموا اليه عريضة  
يطلبون فيها العفو عن الاشخاص الذين اعتقلهم او أطلق  
زبانيته فى أثرهم للقضاء عليهم ، صاح قيصر بهم قائلا :  
« لن أعفو عن أحد ، وسوف يلاقى كل متآمر عنيذ  
جزاءه ! »

حينئذ ، لمعت فى أيدي المتآمرين النصال ، وأنهلوا بها  
على يوليوس قيصر ، صائحين : « مت اذن يا طاغية روما  
وظالم الرومانيين ! »

وسقط يوليوس قيصر على الارض والدماء تنهمر من  
جراحه

وأسرع أصدقائه وأعوانه لنجدته ، ولكنهم وصلوا اليه  
بعد فوات الوقت ، فرفعوا عنه الحلة الرومانية ، وإذا بهم  
أمام جثة هامدة ، مزقت النصال صدرها ، ومزقت معه  
القميص المصرى الأبيض ، الذى أهدته اليه كليوباترة ،  
والذى أصبح له كفنا لفه فى طريقه الى العالم الآخر !



دفن يوليوس قيصر اذن مكفنا بالقميص الذى حاكته  
أيدي الوصيفات وملكتهن فى الاسكندرية من خيوط القطن  
البيضاء فى الاسكندرية . وعادت العشيقه الى عاصمة  
ملكها حزينة حائرة ، ولكن حيرتها لم تطل ، فقد أوقعت  
فى حبائلها القائد الذى حل بعد يوليوس محله فى الشرق ،  
مرقس انطونيوس "

أما قيصرون ، ابن القائد الصريع ، فقد كتب له أيضا  
أن يموت قتلا مثل أبيه ، بأمر من اوكتافىوس ، فى سنة  
٣٠ قبل الميلاد ، وهى السنة التى انتحر فيها انطونيوس  
وانتحرت فيها كليوباترة !

ومن يدرى اذا كانت الملكة الضالة لم تصنع لعشيقتها  
الآخر ما صنعت له للعشيقة الاول : قميصا ناصع البياض  
من القطن المصرى ، كان لانطونيوس الفاسق كفنا ، كما  
كان من قبل لقيصر الطاغية كفنا !





# الحرية الغالية

ان لم تساهم المرأة في القتال من اجل  
الوطن ، فلا أقل من ان تحرض رجلها  
على القتال !

الليل هادىء ساكن . والبدر الكامل يضىض ضوءه المائل  
الى الزرقة على مدينة « طيبة » القابعة فى وسط ذلك  
الهدوء والسكون على ضفة النيل المبارك . ومياه النهر  
تنساب بين الرمال والصخور ، شأنها اليوم كشأنها منذ  
آلاف السنين ومئات القرون ، وكشأنها فى العدا خلال  
مئات أخرى من الاجيال والقرون ، تروى الارض وسكانها  
لا فرق عندها بين عهد وعهد ، ولا يختل وفؤها على كر  
الدهور ، سواء اكانت مصر ترتع فى نعيم الحرية ، او تن  
من جور الحكم الاجنبى البغيض

ذلك لان النيل لا يقصر نحو مصر وان قصرت مصر نحو  
نفسها ! ولا يعمد الى الامعان فى الارهاق بينما الغريب  
الفاصب يحط بأثقاله على كواهل المصريين . فالنهر الوفى  
الامين يواصل اغداق خيراته على مصر لانها منحة منه  
لاهلها ، وهو يعلم انه الشريان الذى تسند منه الحياة ،  
وانها - مهما تكن وطأة الويلات والكوارث - سوف تنفض  
عن نفسها غبار الخمول والاستكانة ، وتنهض من كبوتها  
فى يوم من الايام ..

فى ذلك الوقت ، وفى تلك الليلة بالذات ، كانت مصر  
تتألم وتتوجع ! فقد انكمشت الدولة التى كانت بالامس  
رحبة الجوانب مترامية الاطراف ، وتفككت اوصال الامة  
التى كانت من قبل متماسكة متراسة متأخية ، وافل  
النجم الذى طالما تلالا فى فضاء المجد والعزة والاباء ،  
وأصبحت مصر دولة لا يحكمها ابناؤها ، وامة لا يقودها  
الخلصاء من زعمائها .. فقد غمرتها موجة الفتح ، وتدفقت  
عليها قبائل الرعاة الهكسوس من الشرق | وحل اولئك

الفرسان من البدو محل أبناء البلاد ، فجلس منهم ملوك  
على عرش مصر ، واستقرت منهم أسر في بيوت مصر ،  
واستأثرت أيديهم بخيرات الأرض في مصر ، وانتشرت  
قطعان ماشيتهم في مراعى مصر . وأصبح السكان تابعين  
لهم في المدن والحقول على السواء . . . وأما الذين أبت  
نفوسهم الخضوع والخنوع ، فقد نزحوا عن ديارهم ومزارعهم  
واستقروا في أقصى الجنوب ، حول مدينة « طيبة » العريقة  
في القدم ، حيث لجأت فلول الأسر المالكة ، والعائلات  
الكريمة ، والجيش المهزوم ، والفلاحين الذين فقدوا كل  
شيء ما عدا الأمل في مستقبل أفضل من الحاضر



هذا ما فكر فيه العاشقان - « سكنن رع » و « عاحوتب »  
- وهما يستنشقان النسيم العليل على ضفاف النيل ،  
في ذلك الليل الهادئ الساكن ، وفي ضوء البدر الكامل  
المائل الى الزرقة ، في « طيبة » عاصمة مصر الحزينة  
الجريحة

قالت « عاحوتب » وهى تتكىء على ذراع رفيقها فى تلك  
النزهة الخلوية :

- اننى متعبة الليلة ايها الحبيب . . متعبة الجسم ،  
منعبة الذهن ، منقبضة الصدر . وبالرغم من اواصر الحب  
التي تجمع بين قلوبنا ، فقد بدأت أشعر وأعتقد أن هذه  
الحياة لا تستحق أن نحياها . . . نعم ، لقد سئمتها . . .

فضم « سكنن رع » رفيقته الى صدره ، وسألها بلهجة  
أفرغ فيها حنان الزوج والآخر :

- ما سبب هذا الحزن وهذا الضجر يا حبيبتي ؟ . .  
هل ينقصك شيء فى هذه الحياة التى تشكين منها ؟ . .  
- كلا . . . لا ينقصنى شيء . . . فأنت فى آن واحد

أخى وزوجى ، تحبنى وأحبك ، وتفدق على النعم بلا حساب  
.. لا لا ... لا ينقصنى شيء ... ولكن مصر بلا دناءة ينقصها  
كل شيء .. ومن أجلها أنا متعبة ، وأنا حزينة ، وأنا منقبضة  
الصدر

– صدقت أيتها الحبيبة .. فمصر رازحة تحت نير الحكم  
الاجنبى ... ولكننا لسنا مسئولين عن هذه الكارثة وحدنا  
دون سوانا

– ولكنك أنت وحدك القادر الآن على ارسال الصيحة  
الاولى ، لكى تجعل مصر تصحو من غفوة أخشى أن تتحول  
مع الزمن الى سبات عميق ! .. وأنا الليلة عازمة على  
الافضاء اليك بأمر قد يرضيك وقد يفضبك ، لا أدري !  
ولكنه على كل حال سيرغمك على الخروج من عزلتك ،  
والاقدام على ما تتردد فى الاقدام عليه منذ شهور . وستفعل  
نساء مصر الليلة ما أنا فاعلته ، وتفضى كل منهن الى زوجها  
بما أنا مفضية به اليك .. وغدا عندما يطلع النهار على  
مصر ، سوف يجد الرجال أنفسهم امام أحد أمرين لا ثالث  
لهما

– وما هما الامران يا عاحوتب ؟

– لا .. لن ابوح لك بالسر هنا ، بل فى مخدمنا ، الليلة  
بين أربعة جدران ، وبعد أن أثبت لك اننى ما زلت بالنسبة  
اليك الاخت المحبة ، والزوجة العاشقة

– لنعد اذن الى قصرنا ، ولنسرع الى مخدمنا ، فان  
بى شوقا عظيما الى معرفة ذلك السر الرهيب !

وضحك « سكنن رع » .. ولكن « عاحوتب » لم  
تضحك ، بل قطبت جبينها ، واثكأت مرة اخرى على ذراع  
زوجها وعادت معه ادراجها الى القصر الرابض على  
حافة النهر ..

كان « سكنن رع » واحدا من عشرات الامراء والقواد

المصريين الذين قبعوا في « طيبة » ، ورضوا بفتات العيش  
 بعد رغده ، وخضعوا للأمر الواقع ، وتركوا مصر نهبا  
 للهكسوس ، واكتفوا برقعة ضيقة من الأرض حول « طيبة »  
 فأقاموا فيها شبه دولة ، أو على الأصح دويلات صغيرة  
 لا تتجاوز مساحة كل منها مرمى البصر ، وكانوا كثيرا  
 ما يتباحثون فيما بينهم ، ويتناقشون فيما آلت إليه  
 بلادهم ، ولكن حماسهم لم تكن لتتعدى حدود الكلام  
 وتبادل الآراء ، فلا تنتقل من حيز القول الى حيز العمل ،  
 وأن عملوا فانهم لا يواصلون العمل بل يقعدهم القنوط دون  
 السير فيه

### ٢٢

وكان « سكن رع » أوفر أولئك الامراء والقواد جاها  
 ومالا ، وأبعدهم نفوذا ، وأحبهم الى قلوب الشعب ،  
 وأجدرهم للنهوض بعبء الثورة على الاجنبى المقتصب ،  
 وجمع الكلمة حوله ، والسير بأمرته الى مصير جديد . ولكنه  
 كان مترددا ، كثير الشكوك ، مفتقرا الى الثقة بالنفس ،  
 التى لا بد منها لدفع القائد الى الاقدام على المخاطر واقتحام  
 السبل الى النصر ، وذلك بالرغم من أن الامراء والقواد  
 جميعا كانوا يعترفون له بالمكانة الاولى ، ويقرونه على زعامته  
 بل ويعدون به بمثابة فرعون الجالس على العرش ، وان كان  
 العرش متمايلا مفكك الجوانب فان أسرته تمت حسبا  
 ونسبا الى الأسرة المالكة السابقة ، وآباءه حملوا لقب  
 « فرعون » وكان هو نفسه يعرف بين اقطاب المملكة  
 الصغيرة باسم « سكن رع » الثالث ، وابنه « احمس »  
 الصغير يعرف بين اطفال طيبة بأنه « ولى عهد » أبيه  
 ووارث عرش مصر السفلى من بعده !

أما « عاحوتب » الجميلة الفاتنة ، فهى اخته وزوجته  
 وتلك كانت عادة الفراعنة منذ اقدم العصور : يتزوج الاخ

أخته ، واذا مات اتخذها أخوها الآخر - وأخوه أيضا -  
زوجة له !

وكانت « عاحوتب » امرأة مقدامة جريئة ، تضع أقدامها  
وجراتها في خدمة هدفين عللت النفس بهما ، أحدهما  
يتعلق بشخصها ، والآخر يتعلق بوطنها ، فهي تريد أن  
تكون مصر حرة مستقلة ، مطهرة من كل رجس أجنبي ،  
لكي تتبوا بجانب زوجها عرشا يضم بين دفتيه شمال مصر  
وجنوبها .. تريد لشعبها الحرية ، وتريد لنفسها الملك  
على شعب حر !..

لهذا راحت توغر صدر زوجها « سكنن رع » على  
الهكسوس الفاصبين ، وتثير في صدره الحماسة وتبعث  
فيه الثقة ، وتستنهض همته الفاترة ليعلن الثورة على ملوك  
الرعاة وأقوامهم وأتباعهم وصنائعهم من أهل البلاد ،  
ويزحف على رأس الثائرين نحو الشمال ، ويسترجع  
البلاد لاهلها ، أو يموت في هذا السبيل وتموت هي بجانبه!  
ولما أعيته الحيلة ، وعجزت عن اقناع زوجها بالاضطلاع  
بذلك العمل العظيم ، بحجة أن الجيش الذي لديه ضعيف  
قليل العدد ، وأن الشعب غير ناضج للثورة ، عمدت الى  
وسيلة للاقناع لم تخطر لاحد في بال ، لا من قبل ولا من  
بعد ، وهي موضوع السر الذي عادت بزوجها الى القصر  
للافضاء به اليه في مخدع النوم وبين أربعة جدران !



طلع النهار « وعاحوتب » بين أحضان زوجها « سكنن  
رع » ، تداعبه حيناً ، وتنطلق معه حيناً آخر الى منضدة  
تتوسط الحجرة ، لالقاء نظرة على اللوحات المبعثرة عليها  
والتي غطيت صفحاتها بالارقام والرسوم والاحاجي  
الهيروغليفية .. وأخيرا قالت الزوجة لزوجها :



— حبيبى، الآن وقد ارتشفنا كأس الغرام مترعة، واثبت لك اننى ما زلت اليوم كما كنت بالامس العاشقة المتيمة الولهانة ، فاننى اطبع على شفتيك قبلات حارة يجب ان تعلم انها قبلات الوداع

وانتفض « سكنن رع » لسماعه هذه العبارة ، وأراد أن يتكلم ، ولكن « عاحوتب » وضعت يدها الناعمة على فمه واستطردت تقول :

— لا تتكلم ، ولا تعترض ، ولا تستفسر عن شىء قبل أن انتهى من الافضاء اليك بالسر الذى من أجله عدنا الى هنا نعم أن هذه القبلات ستكون الاخيرة .. ولكن الى حين ، ففي مقدورك أنت وحدك أن تستأنف تبادلها فى يوم من الايام .. أن كل امرأة مصرية فى هذه الليلة تقول لزوجها ما أقوله لك ، وتطلعه على سرها كما أطلعك ، وتوجه اليه الانذار الذى أوجهه اليك .. فاسمع يا سكنن رع ، يا أمير امراء مصر ، ووارث عرش الفراعنة : لقد اجتمعنا سرا نحن نساء عظماء المملكة ، واتخذنا قرارا بالاجماع لن تحيد عن تنفيذه واحدة منا .. اننا نعلن منذ صباح هذا اليوم الذى يطلع فجره فى هذه اللحظة ، اننا نقاطع رجالنا فلا نقرب منهم بعد الآن ولا نمارس معهم فرائض الزوجية ولا نقبل منهم هدية أو عطاء ، ولا نخرج معهم فى نزهة ولا نرافقهم فى سفر ، ولا نؤم الهياكل بصحبتهم ، ولا نرضى بالاحتفاظ بالحلى وأدوات الزينة التى قدموها الينا بعد الزواج ولا نتجمل ولا نتبرج ، الا بعد أن ينطلق ازواجنا الى ميادين الحرب ، ليقاتلوا الاجانب الغاصبين ، ويجلوهم عن أرض الوطن ، ويعيدوا الى مصر كيانها ، وحريتها ، ومجدها ، وسيادتها ! واذا ادعى الرجال أنهم قليلو العدد ، فاننا ننضم اليهم لنقاتل فى الميادين مثلهم .. واذا قالوا أنهم يفتقرون الى مال فجواهرنا وحلينا تحت

تصرفهم . . واذا تعللوا بخوفهم من بطش الهكسوس  
بالبقية الباقية من شعب مصر ، فجوابنا عليهم أنه خير  
لنا أن نفنى دفعة واحدة في ساحة الشرف ، من أن نفنى  
رويدا رويدا في بؤرة الذل والخمول ! هذا ما قررناه . .  
هذا يا سكنن رع هو السر الذي عولت نساء مصر الليلة  
على الأفضاء به الى أزواجهن ، وهذا هو الامر الرهيب  
الذي عقدنا جميعا النية عليه . . فالوداع يا حبيبى . .  
اننى لن أطبع بعد الآن على جبينك قبلة ، ولن أقابلك  
بابتسامة ، إلا اذا كانت القبلة قبلة تهنئة بالنصر ، والابتسامة  
ابتسامة فرح بالحرية الغالية !!

وفى تلك اللحظة ، بينما الفجر يكشف عن ثغره ، كانت  
كل امرأة فى طيبة تودع زوجها مرعدة تلك العبارات ذاتها :  
« لن أطبع بعد الآن على جبينك قبلة ، ولن أقابلك بابتسامة  
إلا اذا كانت القبلة قبلة تهنئة بالنصر ، والابتسامة ابتسامة  
فرح بالحرية الغالية ! »

وما كاد الاله « رع » يصدق على أرض مصر أشعته  
المنعشة ، وما كاد ذلك النهار المشهود ينتصف حتى كان  
« سكنن رع » الثالث قد أعلن الثورة على الفاصب المحتل  
وتبعه أمراء « طيبة » فشقوا عصا الطاعة على الهكسوس  
وهب الشعب بأسره من رقدته ، وهرع كل مصرى الى  
سلاحه ايا كان ، ملبيا نداء الوطن وصائحا لصيحته ، فى  
سبيل الحرية الغالية !



زحف المصريون من « طيبة » الى الشمال ، وداهموا  
مواقع الهكسوس ومعقلهم وحصونهم المنعزلة فاستولوا  
عليها واحدا بعد واحد . ثم اصطدموا بحاميات المدن  
ففتكوا بها واحدة بعد واحدة . ولكن الهكسوس ، الذين

فوجئوا في بادئ الامر بهذه الثورة التي لم يحسبوا لها حساباً، جمعوا جموعهم ، وسيروا جيوشهم لملاقاة الثائرين وتضاعفت همة المصريين بمضاعفة الخطر ، وأيقنوا أن التراجع معناه الهلاك ، وأن في هلاكهم فشل الثورة ، وفي فشل الثورة فناء مصر !

والتف الشعب بجميع طبقاته حول سكنن رع الثالث ونودى به فرعوناً على مصر بشقيها الجنوبي والشمالي ، تيمنا بالنصر القريب واستعجالاً له . وخضع الامراء والقواد جميعاً لزعيم الثورة ، اعترافاً منهم بمكانته وفضله، وقراراً بأن جده « سكنن رع » الاول كان اسبق الامراء الى مناصبة الهكسوس العداء وأن « سكنن رع » الثاني نسج على منواله ، ثم جاء الثالث فأعلن التحرير واستحق أن يتبوأ العرش بدون أن ينازعه فيه منازع

كان أسلاف « سكنن رع » الثالث يقاومون في الجنوب ويشتبكون أحياناً في مناوشات مع الهكسوس على طول مجرى النيل ، ولكن « سكنن رع » الثالث كان أول « فرعون » من الاسرة السابعة عشرة خاض ضد الرعاة حرباً حقيقية هي في الواقع أولى مراحل حرب التحرير في مصر . وقد دفع أمامه قبائل الهكسوس وأجلاهم شيئاً فشيئاً عن مدن الوجه القبلي ، ومدن مصر الوسطى ، والمزارع والحقول الممتدة على ضفتي النهر ، وأقام حاميات مصرية محل الحاميات الاجنبية ، وأعاد الفلاحين الى أرضهم ، وشيد الهياكل لآلهة مصر وسلمها للكهنة الذين جاء بهم من طيبة ، واستغرقت تلك المرحلة من الحرب بضعة أعوام حالف النصر فيها أعلام فرعون ، وعادت فيها الى نفوس المصريين ثقتهم بأنفسهم ، وأيقنوا أن الجلاء التام آت لا ريب فيه ، وأن مصر ستمتع في الغد القريب كما تمتعت في الامس البعيد ، بحريتها الكاملة ، واستقلالها التام ، وسيادتها المطلقة

وبعد نشوب الثورة ، واحراز الثائرين انتصاراتهم الاولى وتراجع الغزاة الاغراب خطوة بعد خطوة الى الوراء ، رأت نساء مصر انهن قد أصبحن فى حل من القسم الذى قطعنه على أنفسهن وأن رجالهن قد نفذوا الشروط التى فرضنها عليهم للعودة الى الحياة الزوجية ، والعدول عن المقاطعة العجيبة التى قررن تطبيقها بايعاز من « عاحوتب » ، زوجة فرعون قائد الثورة !

وكانت « عاحوتب » أسبقهن الى الدعوة بوجوب استئناف العلاقات مع الأزواج ، ما داموا قد ثاروا لمصر وعقدوا العزم على تحريرها من النير الثقيل ، فزينت النحور والمعاصم من جديد بالحلى والجواهر ، وسكر المصريون من جديد أيضا بنشوة الغرام بعد أن سكروا بنشوة النصر !

ووصلت طلائع جيش الثورة الى منطقة « اواريس » وهى « الهوارة » الواقعة فى شرق الدلتا ، حيث كان الهكسوس قد أعدوا قاعدة حكمهم ، ومقر سلطانهم ، ومستودع كنوزهم .. فدارت بين الفريقين معركة رهيبة أوشك الثائرون أن يحرزوا فيها النصر النهائى ، لو لم تحدث مفاجأة غيرت مجرى القتال وأجلت النصر الى حين ..

فقد أصيب فرعون « سکن رع » بضربة فأس فى رأسه وبعشرات السهام التى استقرت فى جسمه ، وهو فى طليعة جيشه يخوض غمار القتال غير هباب ولا وجل . فتضعضع الجيش بفقد قائده ، وارتد المصريون حاملين معهم فرعون الجريح الى حيث أمنوه وأمنوا أنفسهم من الخطر

وودع « سکن رع » هذه الحياة الفانية الى حياة الخلد ، قرير العين بما صنع من أجل وطنه ، واثقا من أن ابنه الذى سيخلفه على العرش ، سيواصل القتال الى

أن يتم له تحرير الوادى من أقصى جنوبه الى أقصى شماله  
وبموت « سکن رع » الثالث ، انتهى عهد الاسرة  
السابعة عشرة ، وتبوات الاسرة الثامنة عشرة العرش ،  
بارتقاء ابنه « أحسن الاول » ، فى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد  
وهو الذى تم فى الواقع على يده طرد الهكسوس من مصر . .



إذا زرت المتحف المصرى بالقاهرة ، فخرج على القاعة  
التي رصت فيها جنباً الى جنب تلك الاجساد البالية  
الباقية فى آن معا ، أجساد الفراعنة المكفين . فانك ستجد  
بينها مومياء « سکن رع » الثالث ، وتبين فى رأسه اثر  
الجرح العميق الذى أصيب به فى آخر معركة خاض غمارها  
بضربة فأس هكسوسى

ثم عرج على القاعة التي تكدست فيها الجواهر والحلى  
فانك ستجد فيها مجموعة من أبدع وادق ما صنعته يد  
الانسان من هذا القبيل : تلك هي المجموعة المعروفة باسم  
« عاحوتب » ، أخت « سکن رع » ، وزوجته صاحبة  
الفضل الاول فى دفع فرعون والشعب الى الثورة ، والتي  
قدر لها أن تعيش طويلاً لکی تشاهد رحيل الغزاة نهائياً  
عن أرض وطنها



# مصرية تنقذ السودان

يقول المثل السائر - وهو صادق :  
« انا واخي على ابن عمي ، وانا وابن عمي  
على الغريب ! »



دخل أعضاء الوفد النوبى واحدا بعد واحد الى القاعة الكبرى ، حيث استوى « قمبيز » على عرشه ، وخرجوا امامه ساجدين وقبلوا الارض بين يديه . فأشار لهم ملك الملوك بأن يقفوا ، واذن لهم بأن يبسطوا الغرض من مثولهم في حضرته ، فتقدم واحد منهم ، ولثم طرف الطيلسان الملكى ، ورفع يده بالتحية على الطريقة المصرية ، وقال :

— أيها المولى المعظم الشجاع ، جئنا اليك عشرون من أبناء « كوش » المقيمين في مصر ، ومعنا امرأة واحدة ليست أقل شأنًا من الرجال ، فهي كاهنة وابنة كاهن ، وساحرة وأخت ساحر ، وطبيبة وزوجة طبيب . والخطبة التى جئنا نعرضها عليك ، إنما هى من بنات أفكارها . فقد رأت « داشيتا » ، الكاهنة الساحرة الطيبة ، أن يذهب وفد من النوبيين النازلين في أرض مصر ، مزودا بثقتك أيها المولى المعظم الشجاع ، والسيد المنتصر المطاع ، الى أرض « كوش » الواقعة جنوبا ، لينصح ملكها بأن يقدم لك فروض الطاعة والخضوع ، ويبعث اليك بالهدايا دلالة على تلك الفروض ، ويعبىء جيشه ، ويضعه تحت تصرفك اذا اقتضت الحاجة ذلك ، ويوفد من ناحيته الرسل الى بلاد الحبشة وأرض « ميروا » وماوراءها من بقاع وأصقاع داعيا الشعوب والقبائل الضاربة فيها الى أن تنسج على منواله ، وتصنع ما هو صانع !

وسكت الرجل .. فرفع « قمبيز » رأسه ، وصدق ببصره في الجماعة ، وسأل بصوت جاف قاطع :

— أين داشيتا ؟

فخرجت من بين الجماعة امرأة في مقتبل العمر ، عليها  
مسحة من الجمال المقرون بالجلال ، وانحنى امام الملك  
ثم رفعت يدها بالتحية ، وأجابت على السؤال :

— أنا هى : الطبيبة الساحرة الكاهنة ، التى حدثك عنها  
هذا الرجل يا قمبيز . واننى لا أشك لحظة واحدة فى  
قدرتى على اقناع ملك « كوش » بالاذعان الى ما نحن  
معولون على طلبه منه . فهو رجل عاقل رزين . وهمه  
الوحيد ، منذ أن تولى عرش بلاده ، أن يجنبها ويلات  
الحروب ، ويضمن لها العيش الرغد والطمأنينة والسلام .  
ولن يتحقق له ذلك ، فى عرفنا ، الا بالخضوع لسلطانك  
والطاعة لارادتك ، بعد أن أحرزت ما أحرزته من انتصارات  
فى مصر !

وسكتت المرأة ، فعاد قمبيز يسأل :

— وماذا تطلبون منى مقابل قيامكم بهذه المهمة ، وادائكم  
هذه الرسالة ؟

فأجابت داشيتا :

— أن توفر لنا وسائل الانتقال ، وتمنحنا رضاك !  
وحدد قمبيز البصر مرة أخرى فى المرأة ورفاقها ، ثم  
أشار اليهم بالخروج قائلا :

— غدا ، فى مثل هذه الساعة ، تأتون الى لسماع رأى  
فيما تقترحونه على !



كان قمبيز ملك الفرس قد هاجم مصر واقتحم حدودها  
ودك حصونها وقلاعها ، فى عهد فرعون « بسيماتييك  
الثالث » . ودافع المصريون عن بلادهم دفاع الابطال  
المستميتين . وقاتلوا قتالا مجيدا فى كل شبر من أرض  
آبائهم وأجدادهم . ولكن الجيوش الفارسية الجرارة كانت

تدفعهم امامها دفعا بكثرة عددها ووفرة عدتها ، ولما سقطت اقاليم مصر السفلى فى ايدى الغزاة الفاتحين ، جمع بسماتيك البقية الباقية من فلول قواته ، واعتزم ان يموت تحت انقاض عاصمته « منف » ، قبل ان تدنسها اقدام الفرس ويتربع فى قصرها الملكى سيدهم وقائدهم

وشعر « قمبيز » بأن اخذ العاصمة المصرية عنوة سيكلفه تمنا باهظا ، فأوفد رسله الى فرعون يعرضون عليه التسليم والصلح ، ولكن « بسماتيك » امر بذبح الرسل ورفع اشلائهم على الاوتاد فوق الاسوار ، وتلك كانت عادة الملوك فى اعلان رفض الشروط التى يعرضها عليهم ملوك آخرون فى سبيل « وضع حد للقتال . فثارت ثائرة الفاتح الفارسى ، والقى بجيشه كاملا الى المدينة ليقتحم أسوارها ، وبعد معركة استمرت عشرة أيام بلياليها ، كان النصر حليف الغزاة ، ووقع فرعون فى الأسر ، وحكم عليه « قمبيز » بأن يشرب دم ثور اسود ، فشرب ومات ، واستوى الفارسى منذ هذا الوقت على عرش الفراعنة الذى توالى عليه ملوك من غير أبناء مصر مائة واحد عشر سنة ، أى من عام ٥٢٥ الى عام ٤١٤ قبل الميلاد ، وهم الذين عرفوا باسم الاسرة السابعة والعشرين

وبعد ان استقرت الامور لقمبيز فى مصر ، وفر الباقون من انصار « بسماتيك » وذويه واعوانه فاختبأوا فى المستنقعات الممتدة على ساحل البحر المتوسط ، راح الفاتح يفكر فى غزوات جديدة ، ويطمع فى بسط سلطانه على ما تبقى من ممالك فى القارة الافريقية ، فى غرب مصر وجنوبها

فى تلك الظروف ، تقدم اليه فريق من النوبيين مع المرأة « داشيتا » ، عارضين عليه خدماتهم ، فى سبيل تحقيق ما كان يطمع فيه ويتطلع اليه

لم تكن داشيتا نوبية كما تبادر الى ذهن العاهل الفارسى من خطابها وخطاب رفيقها النوبى . بل كانت مصرية

صميمة ، تمت الى الاسرة المالكة : فهي ابنة عمه فرعون  
بسماتيك الثالث

أراد « فرعون احمس » ابو بسماتيك ، أن ينشر عبادة  
آلهة مصر فيما وراء شلالات النيل ، حيث كانت الديانة  
المصرية قد اكتسبت اتباعا عديدين ، فزوج أخته لكاهن من  
المقربين اليه ، اسمه « بانيحور » كانت أخته من ناحيتها  
زوجة لملك كوش - وهى شمال النوبة وجزء من السودان  
- وجاءت داشيتا ثمرة ذلك الزواج بين الكاهن وأخت  
فرعون

ورزق « بانيحور » من زوجته الاميرة ابنا احترف السحر  
ومخاطبة الارواح . ولما بلغت الفتاة « داشينا » سن الزواج  
ربطت حياتها ، بأمر من فرعون ومن أبيها الكاهن ، بطبيب  
كوشى كان موضع ثقة قومه ، ومن المقربين الى الملك زوج  
عمتها أخت الكاهن بانيحور

وهكذا أصبحت الفتاة ، كما وصفها المتكلم بلسان الوفد  
النوبى امام قمبيز : ابنة كاهن ، وأخت ساحر ، وزوجة  
طبيب . . وكانت مثلهم طيبة وساحرة وكاهنة !

هذا ما لم تقله « داشيتا » لقمبيز المنتصر المتغطرس .  
ولم تقل له أيضا أن أباه الكاهن ، وأخاها الساحر ، وزوجها  
الطبيب ، قتلوا جميعا بأيدي الفرس ، وهم يدافعون عن  
مدينة « منف » عاصمة مصر . فقد كانوا دائمى التنقل  
بين جنوب الوادى وشماله ، بين وطن لهم فى كوش ، ووطن  
لهم فى مصر : فالعشيرة بعضها هنا وبعضها هناك . والآلهة  
هناك وهنا واحدة . وفى كوش كانوا يغتسلون فى مياه  
النهر المبارك ، ثم يتبركون بها فى مصر ، يوم تغدق خيرات  
فيضاتها على الوادى المقدس . . وفى كوش تنشر الاسرة  
تعاليم دين تستلهم مبادئها من مهابط الوحى فى « منف »  
وقد فاجأ القوم الغزو الفارسى فى احدى رحلاتهم الى

مصر ، فحملوا السلاح مع المصريين للدفاع عن الشطر  
الشمالي من الوادي ، اقتناعاً منهم بأن الدفاع عنه إنما هو  
دفاع عن الشطر الآخر ، الشطر الجنوبي ، وهذا وذاك  
عليهما عزيزان !

مات الثلاثة ميتة الإبطال : الأب الكاهن ، والزوج الطبيب  
والإخ الساحر . وبقيت « داشيتا » يتيمة وحيدة تكلى ،  
تنشد الثأر للضحايا الثلاث ، ولا تجد إليه سبيلاً ، بعد  
ما حل بمصر ، أحد وطنيها من أحن وويلات . . ولكنها  
راحت تفكر وتطيل التفكير ، وتبحث وتمعن في البحث ،  
حتى هدتها الآلهة إلى رأى ما أفضت به إلى جماعة من  
الكوشيين المتخلفين في مصر ، حتى وافقوها عليه وتعهدوا  
لها بأن يساهموا معها في وضعه موضع التنفيذ

ويرمى ذلك الرأى إلى إيقاع الفاتح الفارسي في شرك  
ينصب له . فقد وضع لكل ذى بصيرة ، بعد سقوط « منف »  
وقيام الحكم الفارسي في مصر ، أن « قمبيز » ينوى المضي  
في طريقه إلى فتوحات جديدة ، وأن النوبة وكوش وما  
وراءهما من بلدان معروفة أو مجهولة ، ستكون هدفه  
القادم أن عاجلاً أو آجلاً . فلا بد إذن من تمهيد السبيل  
لتكون تلك البلدان مقبرة لجيوشه الجرارة ، وذلك بتحريضه  
على دفع تلك الجيوش إلى المجاهل الأفريقية ، من ناحية ،  
والتآمر عليه من ناحية أخرى مع ملك الكوشيين وزعماء  
القبائل المجاورة له ، لكي يتظاهروا بالطاعة والخضوع ، في  
حين أنهم ، في الواقع ، يخلون البلاد من أهلها ، ويجردون  
الأرض من نباتها ، ويقطعون غاباتها ، ويردمون آبارها ،  
ويحولونها إلى صحراء قاحلة

ووقع « قمبيز » في الفخ ، وزود الوفد النوبي بالمال  
والركائب والهدايا ، وراح يعد جيوشه لاستئناف الزحف

قابل ملك كوش مواطنيه القادمين من مصر بالترحاب .  
وأصفى الى ما اطلعوه عليه من حقائق ووقائع . وأدرك أن  
خلاصه وخلاص قومه وبلاده وجيرانه في العمل بالنصائح  
الغالية التي حملتها اليه « داشيتا » الوفية الامينة . فأوفد  
في الحال رسلا الى مصر يدعون قمبيز الفارسي للسير الى  
كوش ومنها الى الحبشة وأرض « ميروا » . وأوفد في آن  
واحد جماعات من رجاله الى القرى والمزارع الواقعة على  
الطريق ، حول مجرى النيل أو في بطون البادية أو وسط  
الغابات ، فأخلوها من سكانها وأضرموا فيها النيران، وقطعوا  
الاشجار ولم يتركوا أثرا لماء في بئر أو في عين . وأرغموا  
الوحوش والطيور على الخروج من الادغال والفرار أمام  
النيران الملتهبة . ولما تقدمت جيوش الفرس بمعداتها، على  
أمل أن تجد الشعوب في طريقها ساجدة تقدم الهدايا وتتسابق  
الى خدمة الفاتحين وتوفير أسباب الراحة لهم ، اذا بها  
لا تجد غير قفر موحش لا ماء فيه ولا نبات ، ولا انس ولا  
حيوان ولا طير

واستمعت الآلهة الى دعاء « داشيتا » ، ابنة الكاهن  
وأخت الساحر وزوجة الطبيب ، فأطلقت قوى الطبيعة من  
عقالها وهبت الرياح العاصفة الهوجاء من كل صوب ،  
وسلط الآله المتربع على عرش الشمس اشعته الحارقة  
على رعوس الجنود الاغراب فكانت أشد وطأة عليها من  
السهام الفتاكة ، وانطلقت في الجو سحب من الرمال تسفيها  
الرياح في وجوه الزاحفين ، ثم ترفعها وتلقيها عليهم تلالا  
فوق تلال ، فخيّل الى قمبيز أن الجحيم قد تفتحت أبوابه  
ومنافذه ، وأدرك أن نجاته في العودة على أعقابهِ من حيث أتى  
ولكن ، كيف السبيل الى العودة وقد قطعت جيوشه  
تلك المسافات الشاسعة وأصبحت في اعتقاده على قاب  
قوسين أو أدنى من الهدف المنشود ! . .



ولما أيقن الفاتح العظيم أن انتصاره في مصر يتحول هنا شيئاً فشيئاً الى كارثة ماحقة ، وأن المرأة التي جاءت مع وفد من النوبيين قد غررت به وخدعته ، وأنه وقع في فخ نصب له ، وانتقاد لمكيدة حاكت خيوطها أنامل كاهنة ساحرة تفقد عقله فاذا بعقله قد ضاع ، وحاول أن يفكر في طريقة تخرجه من ذلك المأزق الحرج فاذا بذهنه عاجز عن التفكير نعم ، أصيب قمبيز بالجنون ، وسط العواصف والاعاصير والرياح العاصوية كالذئاب ، في الصحراء النوبية القاحلة الجرداء !

ولم تكن الجماعات الفارسية التي وصلت الى مصر عائدة من تلك الحملة المربعة ، جيشاً يخشى جانبه ، بل كانت فلولا مقطعة الاوصال ، وأشباحاً لرجال كانوا بالامس في مصاف الابطال !

ولم يكن القائد الذي عاد الى مصر مع تلك الفلول غير شبح أيضاً : شبح الفاتح العظيم الذي دوخ العالم وهزم الجحافل في كل مكان ، فدوخته حيلة امرأة ، وهزم جيشه بلا قتال ، في ارض لا أثر لعدو فيها !

واعتقد قمبيز أن آلهة مصر خالفت المصريين عليه ، فأمر بهدم هياكلها وتحطيم تماثيلها ، ودفعه جنونه الى ذبح العجل ابيس ، الذي شاءت الظروف ان يولد في اليوم الذي وصل فيه ملك الفرس الى منف عائداً من غزوته الخائبة !

ولم يعيش قمبيز أكثر من عام واحد بعد تلك الصدمة ، فقد مات في سنة ٥٢٢ قبل الميلاد

أما « داشيتا » ، فقد بقيت في وطنها الثاني « كوش » حيث احاطها القوم بمظاهر التبجيل والتكريم ، لأنها في نظرهم قد أنقذت وطنهم من الوقوع في عبودية الفرس ،



بحملها الملك على تنفيذ الخطة التى تفتق عنها ذهنها .  
وأحاط المصريون أيضا ذكرها واسمها بالاجلال والتقدير  
لأنها كانت سببا فى اهلاك الجيش الفارسى ، ودفع العاهل  
الفاتح قمبيز الى الجنون فالموت ، مما أدى الى اضعاف  
حملة الارهاب الرامية الى افناء السكان

وعاشت « داشيتا » الكاهنة ابنة الكاهن ، الساحرة  
أخت الساحر ، الطبيبة زوجة الطبيب ، بقية أيامها قريرة  
العين مرتاحة الضمير : فقد ثارت لأحبائها الثلاثة ، الأب  
والإخ والزوج ، الذين قتلوا فى سبيل مصر ، وثارت للوطن  
الأول الذى أنجبها ، ودفعت الشر عن الوطن الثانى الذى  
احتضنها !



# عثمان دقنة

تباينت الروايات وتناقضت حول  
الزعيم السوداني ((عثمان دقنه)) . ويعتقد  
الكاتب أن قصته الحقيقية هي التي  
يوردها هنا :

جلس الصديقان الشابان فى حوش المدرسة الحربية بالقاهرة ، وجعلا يتجاذبان أطراف الحديث ، فأفصى كل منهما الى صاحبه بما يجيش فى صدره من آمال واسعة ، ومطامع بعيدة

اسم أحدهما أحمد عرابى ، واسم الثانى عثمان الصغير تحدثا طويلا عن مصر والسودان ، عن الحاضر والمستقبل عن الشرق والغرب ، عن الحروب السابقة والمقبلة ، عن كل ما يثير اهتمام شابين تجرى فى عروقهما دماء حارة ، وتختلج فى صدريهما روح وثابة ، ويدفعهما الأقدام الى السعى وراء المغامرات ، وركوب متن الأخطار ، طلبا للمجد أو رغبة فى الشهرة

جاء عثمان الصغير الى المدرسة الحربية ، وكان قليل الكلام يميل الى العزلة ، فلم يصادق من بين رفاقه غير أحمد عرابى . وتوثقت بين الشابين عرى أخوة متينة ، وروابط محبة خالصة

وكان عثمان فى ذلك اليوم قد عول على ترك المدرسة والرحيل عن مصر . فكان لقاؤهما فى الحوش جلسة الوداع وكان حديثهما خاتمة الأحاديث

وقد فرقت الأقدار بينهما فراقا دائما . وسعى كل منهما الى تحقيق أهدافه وأمانيه بالوسائل التى توافرت له قاد أحمد عرابى ثورة الجيش المصرى فى سنة ١٨٨٢ . وكان عثمان الصغير فى الوقت ذاته يجمع جموعه فى السودان الشرقى ويخوض غمار الحرب ضد المصريين والانجليز

سنة ١٩٠٠

ما أسرع الأرض في دورانها ، وما أسرع الأيام والاعوام  
في تتابعها

دارت الدائرة على الدراويش بعد حرب دموية طاحنة  
وطورد عثمان من مكان الى مكان ، وخر في النهاية على  
الأرض منهوك القوى ، ووقع في الأسر فأرسل الى السجن  
في الخرطوم

أفل نجمه فاستسلم لحكم القدر . وجلس بين جدران  
سجنه ، وأخذ لحيته الكثيفة بين أصابعه ، وراح يعبث  
بشعورها البيضاء

وشردت أفكاره الى الماضي القريب والبعيد . فتذكر  
شبابه . وتذكر الاسكندرية ، وتذكر صديقه أحمد عرابي  
الذي وقع في الأسر مثله ، وأرسل الى السجن مثله

وتذكر صباه ، هناك ، في بلاد نسي لغتها ، ونسى أهلها  
وهي لغته ، وهم أهله :

ما أقسى القدر وما أغرب الحياة !

تجلت للأسير صفحات حياته ، فجعل يقلبها واحدة  
واحدة ، ويقرأ فيها مادونه بأعماله من سطور

عادت به الذكرى الى تلك المدينة الفرنسية التي رأى  
فيها النور ، والتي كان يجرى في طرقاتها وأزقتها مع  
الصبيان

اسمها « روان »

واسم والده « نيسبت »

واسمه هو « جورج »

أما الآن ، فهو عثمان دقنه السوداني !

يا للغرابة !

هاجر « نيسبت » الأب من وطنه سكوتلاندا الى فرنسا مع زوجته الشابة ، واستقر به المقام في مدينة « روان » حيث فتح حانوتا لبيع المأكولات والمشروبات ، وكثراقبال العمال والفلاحين عليه فراجت تجارته ، وأحبه الناس لما اتصف به من خلق كريم ، وحديث فكه ، وحب للخير ورزق نيسبت في روان ، سنة ١٨٣٦ ، مولودا اسماه « جورج »

لكن الرجل لم يطق الإقامة طويلا في فرنسا ، فحملة ميله الى المغامرات والاسفار ، على بيع حانوته ، والرحيل الى الاسكندرية مع عائلته الصغيرة

وهناك عرف رجلا من الأناضول يدعى « عثمان خير الدين » يمارس تجارة الرقيق بين الاستانة والاقطار الافريقية ، ويعد من كبار النخاسين في ذلك العهد

كان عثمان النخاس في حاجة الى رجل من الغرب يحسن اللغات الاجنبية ، فاستخدم نيسبت الذي اخلص له الخدمة وعاونه في أعماله الواسعة ، وأصبح في مدة قصيرة حائزا على ثقته ومحبته

لكن مرضا خبيثا أودى بحياة المسكين في سنة ١٨٤٨ ، فبقيت زوجته وحيدة مع ابنها جورج ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره

غير أن عثمان خير الدين كان وفيا لصديقه بعد موته . فقد ظل ينفق على المرأة وابنها ، وطلب الى الزوجة الحزينة الا تمد يدها الى ما ادخرته من مال ، وأن تحفظه لجورج كاملا كما تركه أبوه

وجاءته المرأة ذات يوم حزينة كئيبة ، وقالت :  
- لقد غمرتنا بعطفك . ولكننا لا نريد أن نبقي هنا عبئا عليك . فهل لك أن تساعدنا على العودة الى فرنسا حيث لنا أصدقاء ومحبون ؟  
فأجابها عثمان :

— أن النخاس شرس الطباع غليظ الكبد يا سيدتى .  
ولكنه يحفظ الجميل ولا يتخلى عن صديق . لقد مات  
زوجك . فهل تقبلين أن أحل محله ؟

— أتريد منى . . ؟

— أن تصبحى زوجتى ، نعم ، وأن يصبح ولدك ولدى  
— ودينى ؟

— لا أجد فى دينك عقبة تحول دون تحقيق هذه الرغبة  
ستظلين على دينك اذا شئت . أوتعتنقين الاسلام اذا أردت  
— وجورج

— أن مستقبله بين يديك . فعليك وحدك أن تختارى  
له السبيل الذى تريد أن يسير عليه  
فكرت المرأة قليلا . ثم رفعت رأسها وقالت :  
— قبلت . سأصبح زوجتك . . ولكن على شرط  
— وما هو الشرط ؟

— أريد أن اكون زوجتك الوحيدة ، لا تشاركنى فى  
حياتى الزوجية امرأة أخرى  
— سيكون لك ما تريد

— سأدين بدينك مع ولدى . فكن له منذ الآن الأب  
الحنون الذى ينسيه فقدان أبيه

— سأكونه . وليس ما أعرضه عليك الآن غير بعض  
الوفاء نحو من كان لى أمينا وفيا

تزوج عثمان خير الدين ، النخاس التركى ، زوجة صديقه  
نيسبت السكتلاندى ، وتبنى ابنه جورج الفرنسى ، واطلق  
عليه اسم « عثمان الصغير »

وماتت الزوجة فى السنة ذاتها ، ولحق بها زوجها الثانى  
بعد سنتين ، بدون أن ينجب أبناء . فورث عنه « عثمان  
الصغير » ابن نيسبت ثروة طائلة



وعندما اشتد ساعد الشاب ، فكر في ممارسة الجندية ودخل المدرسة الحربية بالقاهرة ، ولكنه لم يقم فيها طويلا ورأى أن السير على منهج الرجل الذي تبناه وأورثه ماله خير له من البحث عن مهنة أخرى . فقرر مزاولة تجارة الرقيق ، وراح يطوف بالبلدان شرقا وغربا وجنوبا ، ويعرض على الناس بضائعه وسلعه الحية من عبيد وجوار وانتهى الامر بأن اتخذ ساحل السودان الشرقي مقرا له ، ومركزا لتجارته الرابحة ، لان مصر كانت قد ألغت تجارة الرقيق في أرضها ، وسدت امام النحاسين أبواب الرزق وأطلق عثمان لحيته فسماه السودانيون «عثمان دقنة»



كان من بين الاسباب التي أدت الى قيام ثورة المهدي في السودان سنة ١٨٨٠ ، اقدام الحكومة المصرية على تعميم قرار إلغاء الرقيق ، ومحاولة تطبيقه في الأراضي السودانية أيضا

فقد غضب عثمان دقنه مع من غضب لهذا القرار من زعماء السودان ، ولم يغضب عثمان ولم يلتحق بحركة محمد احمد بن عبد الله المهدي لاي غرض آخر

نشبت المعارك الاولى بين الثائرين من جهة ، والمصريين ثم الانجليز من جهة أخرى . وتكاثر الدراويش اعوان المهدي على الحاميات المصرية والحمالات التي جردت لنجدتها ، فأحرزوا انتصارات في جبل العذير وغيره من الاماكن في عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢

وعهد المهدي الى عثمان دقنه بقيادة الحرب في السودان الشرقي ، ومنع المصريين والانجليز من ارسال نجدات جديدة بطريق البحر والبر الى الخرطوم ، قاعدة البلاد التي جعلها زعيم الثورة هدفة الاكبر . فجمع عثمان جموع

القبائل ، واستعاض بالرمح يطعن به الصدور ، عن السوط  
يدمى به الظهور ، وتحول النخاس الى جندي ، وزعيم  
تجار النهود والنحور الى قائد حربي ، فراح يخوض غمار  
المعارك بقلب قد من جلمود ، ويدير رحاها بمهارة أدهشت  
العقول

سجل عثمان دقنه انتصارات باهرة ، في سنتي ١٨٨٣  
و ١٨٨٤ على الخصوص ، وكانت الاعمال الحربية التي قام  
بها على ساحل السودان وفي الطريق بين سواكن والخرطوم ،  
من العوامل الرئيسية التي مكنت المهدي من الاحداق  
بالعاصمة ، ومهاجمتها ، والاستيلاء عليها ، والفتك بحاميتها  
والى عثمان دقنه وحده يعود الفضل في سيطرة الدراويش  
على شرق السودان كله . ومما يدعو الى الدهشة والعجب  
في هذه الثورة الهوجاء ، أن العبيد الذين كان المهدي وأعوانه  
يحاربون المصريين والانجليز لابقائهم مكبلين بسلاسل الرق  
والعبودية ، كانوا من ناحيتهم يحاربون ضد الساعين  
لتحريرهم ، وفي صفوف الراغبين في استرقاقهم !

فما حدث من قبل في أمريكا ، عندما حارب العبيد في  
صفوف الجنوبيين ضد الشماليين ، الذين كانوا ينادون  
بالغاء الرقيق ، قد تكرر في السودان حيث أبى العبيد أن  
يحاربوا تحت لواء الحرية !



سقطت الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥  
ومات محمد أحمد المهدي في شهر يونيو من السنة ذاتها  
وخلفه عبد الله التعايشي . وظل عثمان دقنه مسيطرا على  
البقاع الشرقية والساحل . وعادت تجارة الرقيق الى  
الازدهار

لكن المصريين والانجليز لم يضيعوا الوقت ولم يدعوا

السنوات تمر سدى . فقد أعدوا عدتهم لاسترجاع السودان  
وزحفت جيوشهم من جديد في سنة ١٨٨٨ ، وكان مقدرا  
لهذه الحرب أن تستمر عشرة أعوام

عشرة أعوام تقاتل فيها الاشقاء ، وحارب فيها السودانيون  
أخوانهم المصريين ، ولم يدرك هؤلاء وأولئك أن الانجليز ،  
وقد وضعوا أصابعهم في هذا الصراع العائلى الاثيم ،  
سيفوزون من الغنائم بحصة الاسد ، بل سيكونون هم  
وحدهم الغانمين الرابعين !

زحفت الجيوش المنحالفة اذن على السودان ، ونشب  
فيه القتال مرة أخرى ، ومرة أخرى عاد عثمان دقنه الى  
تسيير دفة المعارك فى الاقاليم الشرقية

ومرة أخرى حمل عبيده السيوف والرماح ، ليحولوا  
دون تحريرهم ، وليبقوا على تجارته ، وما تجارته غريب  
أجسامهم فى الاسواق ، والمساومة عليها مساومته على  
الماشية والانعام

شعر تاجر الرقيق فى هذه المرة بأن الخطر جسيم ، وبأن  
القتال سيكون مريرا ، فكدف فى الميدان بجميع ما استطاع  
حشده من قوات وأسلحة . ولكن الحظ فى هذه المرحلة  
من الحرب كان يضحك له يوما ، ويعبس فى وجهه أياما !  
توالت عليه الهزائم ، وخانه النصر . ولكنه لم يترك  
لليأس منفذا الى قلبه

ظل يقاتل ، وظل ينهض بعد كل كبوة ، ويعود الى  
الميدان بعد كل هزيمة ، وكان خبر موته ينتشر مرة كل  
اسبوع ، ولكنه يكذب الخبر فى الاسبوع التالى  
وأخيرا تعب عثمان دقنه من القتال أو تعب القتال منه،  
فهام على وجهه فى البرارى والجبال والأدغال ، وكانت  
مطاردة أشبه بأساطير الاقدمين  
ووقع الأسد الهارب أسيرا فى قبضة خصومه ، وسيق  
الى السجن مكبلا بالحديد !

تلك هي الذكريات التي تلاطمت في صدر الرجل ، ومرت في خاطره ، وهو جالس بين الجدران الاربعة ، يعيث بشعور لحيته البيضاء ، وينظر من خلال النافذة الضيقة الى السماء الزرقاء ، والى الفلوات التي صال فيها من قبل وجال وطارد فيها وطورد ، وانتصر فيها وانهزم

لقد ضاع كل شيء : الثروة ، التجارة ، الشباب ، الحرية ! مرت في ذهنه أسماء الأشخاص الذين عرفهم في حياته اصدقاء أو أعداء : أسماء أبيه نيسبت ، وأمه ، ومربيه وزوج أمه ، عثمان خير الدين ، وأحمد عرابي باشا الذي لم يكن أوفر منه حظا ، والجنرال باكر ، وهكس باشا ، ورؤوف باشا ، ويوسف باشا ، وغوردون باشا ، وجرانفل وغيرهم من القواد الذين هزمهم أو هزموه ، ونازلهم ونازلوه . والنجاشي يوحنا الذي حاول أن يطعنه من الخلف ، بينما كان مشتبكا في معركة مع الانجليز . والجنرال ونجت ، الذي قتل عبد الله التعايشي ، وأسر عثمان دقنه - في ١٨ يناير سنة ١٩٠٠ . وأخيرا كتشنر ، الذي تم اخضاع السودان على يده !

لقد انتهى كل شيء ، وضاع كل شيء !  
والشيخوخة تحط بأثقالها على منكبيه ، والاسريزیده عذابا على عذاب

أنه يشعر بأن الوهن يتطرق الى جسمه ، والى عقله ايضا ..

أنه يبذل جهدا عظيما لكي يتذكر !



أنه لا يتذكر ، مهما بذل في هذا السبيل من جهد الظلمات تكتنفه ، وركبتاه تضطربان ، ويداه ترتجفان ونظره لا يميز الأشياء  
فتح باب السجن مرة ، ودخل عليه رجل طويل القامة

وحياه بالعربية ، فرفع اليه عثمان عينيه المنطفئتين ...  
وقال الرجل :  
- كيف حالك يا عثمان ؟  
- أحمد الله أولاً وآخراً  
- أما عرفتني ؟  
- لا  
- كشنر !  
- من ؟  
- أنا اللورد كشنر !  
- اللورد ؟ ..  
- ألا تتذكر هذا الاسم ؟  
- لا .. !  
- ألم تسمع به ؟  
- لا .. !



في شهر ديسمبر ١٩٢٦ ، مات عثمان دقنه ، أوجورج  
نيسبت ، أو عثمان الصغير ، الزعيم السوداني الفرنسي  
وقد فقد الذاكرة ، بعد أن فقد كل شيء ! وكان في التسعين  
من العمر !

لقد اشترك الانجليز مع المصريين في محاربة المهدي  
وعثمان دقنه ، لتحرير العبيد الارقاء !

وقد تحرر العبيد الارقاء اليوم كأفراد ، ولكن احفاد  
المهدي ودقنه ، وأحفاد انصارهما وأعوانهما ، يأبون أن  
يستعبد السودانيون كأمة ، ويستعبد السودان كوطن ؟

وهم اليوم ، بعد أن اسدلوا على ذلك الماضي ستار  
النسيان ، يمضون بالوطن السوداني قدما نحو استكمال  
الحرية والكرامة !

# السيف مفتاح الفرج

الأسماء في هذه القصة مستعارة . وهي  
قصة أسرة خاض أفرادها ميادين  
الجهاد خمس مرات ، في سبيل الأوطان  
العربية المنكوبة بالاستعمار . ولا تزال  
البقية الباقية منهم على أهبة تامة لتلبية  
النداء ، إذا ما ادلهم الخطب ودق ناقوس  
الخطر !

المنزل صغير متواضع ، رابض في سفح جبل من جبال نابلس ، تكتنفه أشجار باسقة ، وتسدل أغصانها حوله ستارا تمتزج خضرته بالأزهار الزاهية . والمنزل مؤلف من حجرتين للنوم وحجرة للطعام واستقبال الزائرين وعلى جدران الحجرة الثالثة أربع صور يتوسطها سيف في غمده وعلى الغمد هذه العبارة ، حفرت كلماتها في النحاس : « السيف مفتاح الفرج » وتحت هذه العبارة أسماء بلدان عربية : « مصر - فلسطين - سوريا - لبنان »

وربة البيت امرأة في العقد السادس من العمر ، شديدة السمرة ، في جبينها آثار جرح عميق ، وفي عينيها بريق لم تطفئه الآلام التي تنبئ عنها تجاعيد وجهها الكثيرة . والرجل الوحيد الذي يعيش معها في تلك العزلة شاب في مطلع العقد الرابع ، قوى البنية مفتول العضلات كمعظم أبناء الجبال

هو ابنها ، والبقية الباقية من أسرتها . تدخل معه كل يوم ، عند الفجر الى قاعة السيف والصور ، فيقرأ الابن وأمه الفاتحة على روح الشهداء ، ويبسطان أيديهما امام النصل القابع في غمده ويرددان : « السيف مفتاح الفرج ! »



كان عمر عبد الباقي سليل أسرة مصرية ، جدها جندي من جنود الحملة المصرية الذين تخلفوا في فلسطين بعد انسحاب المصريين منها في عام ١٨٤١

لم يقطع عمر صلاته بوطنه الاول ، بل سافر الى مصر في



سنة ١٩١٢ ، قبيل الحرب العالمية الاولى وتزوج فتاة من بنات قومه ، هي « سميرة » التي تمت أسرتها الى أسرته بأواصر النسب ، وأكرهته الحرب على البقاء في مصر ، حيث فوجيء بثورة المصريين على الظلم والعدوان سنة ١٩١٩ ، فاشترك فيها مع لفيف من القرويين ، وساهم في أعمال البطولة التي أقدم عليها سكان المدن وسكان الريف على السواء في تلك الحقبة المثيرة من تاريخ الوادي ، وأصيب بجرح في كتفه أقعده عن كل حركة مدة من الزمن . فعاد الى فلسطين مع زوجته وأطفاله الثلاثة : زينب ورامى وكارم



حمل عمر عبد الباقي معه الى وطنه الثاني سيفاً قديماً أهداه اليه حموه في أثناء الثورة المصرية قائلاً : « ان هذا السيف كان لجدي . وقد أعطاه لجدي ، رفيقه في حروب الأناضول ، عندما افترق الاثنان فعاد جدي الى مصر وبقي جديك في فلسطين . فخذته تذكارا مني ، مصحوباً بدعائي لك ولايتنى بالسعادة والخير ! »

وصل الرجل الى الارض المقدسة فوجدها على غير حالها من الهدوء والطمأنينة . فالنفوس ثائرة ، والخواطر هائجة ، والناس في هرج ومرج ! فقد غدر الخلفاء بالعرب واعتزموا انتزاع وطنهم منهم وأهداءه لقمة سائغة لليهود ، وفرضوا على البلاد انتداباً يحول بينها وبين الحرية التي وعدت بها ، فعمد كل الى سلاحه يشحذ به استعداداً للطوارئ . ولم يتردد عمر عبد الباقي في النسيج على منوال الشعب الذي أصبح فرداً من أفرادهم ، فاستل سيف الأسرة من غمده ، وحفر على الغمد تلك العبارة التي كان العرب يرددونها لجمع الصفوف وتوحيد الكلمة :

## « السيف مفتاح الفرج ! »

ووقعت في موطن المحبة والسلام اضطرابات عنيفة  
سالت فيها الدماء غزيرة . ومرت على فلسطين حقبة من  
الزمن أتيح فيها للعرب أن يشعروا العالم بأنهم لن يرضخوا  
لظلم ولن يناموا على ضيم وراحت نفوس زكية وأرواح  
بريئة قرابين على مذبح القومية العربية الفائرة . وشاءت  
الأقدار أن يكون لأسرة عبد الباقي نصيب من تلك الضحايا ،  
فأصاب رصاصة طائشة الطفلة زينب وهي عائدة الى بيت  
أبيها فأردتها قتيلة ..

وبعدما هدأت الحالة الى حين أعاد عمر عبد الباقي سيف  
الأسرة الى غمده ، وانصرف الى أعماله العادية ، ورزقه الله  
طفلة أخرى حلت محل الفقيدة ، فسماها « علوية » وعلق  
صورة زينب الصغيرة الى جانب السيف ، وحفر على  
الغمدة اسمين هما : « مصر - فلسطين » تحت العبارة  
الأصلية « السيف مفتاح الفرج ! »



وفي عام ١٩٢٥ ، لجأ السوريون الى السلاح لتحرير وطنهم  
من انتداب الفرنسيين ، فنشبت ثورة في جبل الدروز عمت  
بسرعة البرق جميع البلاد الشامية ، حواضرها وبواديها ،  
وقاد المجاهدين في ذلك الصراع الرائع بطل من أبطال  
الحروب المغاوير هو سلطان باشا الأطرش . فهاجت في صدر  
عمر الرغبة في القتال ، وشعر حفيد الجندي المصري الذي  
حالف النصر في ربوع الشام ، بأن الواجب يدعو للالتحاق  
بالتأثرين ، فتقلد سيف الأسرة ، وودع زوجته وأبناءه ،  
واجتاز الحدود مع ليف من الرفاق ، وهم يهزجون :  
« السيف مفتاح الفرج ! »

خاض عمر عبد الباقي غمار معارك تغلبت فيها الشجاعة

على العدد والعدة ، وأسكتت فيها بنادق المجاهدين مدافع المستعمرين ، وانهزم فيها باطل الظلم أمام الايمان بالحق !  
وتوثقت عرى الصداقة بين المجاهد المصرى الفلسطينى وقائد شاب من قواد الثورة : « فوزى القاوقجى » الذى كان يعهد اليه بأشد الاعمال خطرا وأبعدها جراحة !

وبعد سنتين من قتال جدير بالتخليد فى صفحات التاريخ ، أبت الأقدار الا أن تنزل بالأسرة المجيدة ضربة قاسية أخرى ، فسقط عمر عبد الباقي صريعا فى آخر معركة نشبت بين الثائرين والفرنسيين . فبكاه رفاقه ، وواروه التراب بين الصخور ووضعوا على قبره شاهدا من غصون الاشجار ، وحملوا سيفه الى زوجته وأولاده ، فضمتهم أمهم الى صدرها ، وعلقت السيف على الحائط ، ووضعت صورة الزوج الشهيد بجانب صورة ابنته ، حول السيف التاريخى ، وأقسمت أن تثار له فى مستقبل الايام ، وتناول « كارم » خنجره وحفر اسما ثالثا الى جانب الاسمين السابقين : « مصر - فلسطين - سوريا »



... ١٩٣٦

هب عرب فلسطين الى السلاح هبة واحدة ، ولجأوا الى القوة لانتزاع حقوقهم من براثن الأسد البريطانى كما فعل من قبل اخوانهم فى مصر وسوريا ، وتنادى الناس الى القتال وتبادلوا أرغفة الخبز المغساة بالدماء من قرية الى قرية - وهى عادة موروثة فى جبال فلسطين للاستنفار الى الجهاد - ولعلع الرصاص وبرقت النصال فى القمم والوديان !

وهرعت النساء مع الرجال الى صفوف المجاهدين من كل فج وصوب . وعلمت سميرة زوجة عمر عبد الباقي أن قائد الثورة العربية فى فلسطين هذه المرة ، هو الرجل

الذى فارق زوجها الروح بين يديه : فوزى القاوقجى ،  
فتناولت سيف الأسرة عن الحائط ، واستلّت نصله من  
غمده وقدمته لولدها البكر « كارم » وقالت :

— لقد بلغت العشرين من العمر يا بنى ، فعليك الآن أن  
تلبى النداء وتقوم بواجبين : واجب الجهاد لهذا الوطن  
العربى وواجب الثأر لأبيك !

فاختطف الشاب من أمه السيف اختطافا ، وصاح  
صيحة جعلت المرأة تبكى من الفرح : « سأقوم بالواجبين  
يا أماه ! » وإذا بأخيه « رامى » يسرع إليه معانقا ، ويطلب  
الللحاق بالمجاهدين مثله ولكن الأم مانعت فى ذلك قائلة :  
« ومن يحمى الدار يا بنى إذا هاجمها مهاجم ، فنحن فى  
منزل منعزل وسط الجبال ، ولن تعد سبيلا هنا الى  
المساهمة فى الثورة ، فأساليب الجهاد ووسائله كثيرة  
متعددة ! »

ورحل كارم بن عمر عبد الباقي الى الجبال ، حيث التحق  
بالمجاهدين ، وخاض معهم غمار المعارك كما فعل أبوه من  
قبل ، وأبلى فيها مثله أحسن بلاء ، وعهد القائد العام الى  
الابن بأشد الأعمال خطرا وأبعدها جراءة ، كما كان يفعل من  
قبل مع أبيه

وانطلق كارم مع المجاهدين يطلب الموت لتوهب لوطنه  
الحياة ، وكان صوته يردد مع أصواتهم متغنيا بالأناشيد  
الحماسية :

« الموت سترة والمذلة تعيبنا ! »

أما سميرة وابنها الثانى رامى ، وابنتها عليّة ، فقد  
ساهموا فى الثورة قدر استطاعتهم ، فموتوا الثائرين ،  
وأنجدوا الجرحى ، وأضافوا التائبين ، مما أثار حولهم  
الشبهات ، فعهدت السلطات العسكرية الى جواسيسها  
بمراقبة الدار المخبوءة بين الأشجار ، حتى إذا ما ثبت لها

اتصال الأسرة بالثائرين ، سرت عليها فصيلة من الجند  
هاجمتها ، فدافعت المرأة وابنها ومن كان مختبئاً عندهما عن  
الحمى المستباح ، وحطت الأقدار مرة أخرى بأثقالها على  
الأسرة السيئة الحظ ، فقتل الشاب رامى فى المعمة ،  
وقتلت أخته علوية وهى تحاول اسعافه ، وأصيبت الأم  
سميرة بجرح فى جبينها فأنقذها المجاهدون الذين كانت  
قد آوتهم فى بيتها ، وابتعدوا بها بين الصخور الى مكان  
أمين

وعلم كارم بما حدث ، فأسرع مع رهط من اخوانه الى  
الدار المهدمة ، ودفن أخاه وأخته على القمة المشرفة على  
الوادي ، وأسعف أمه بالعلاج فشفى الجرح ولكنه ترك فى  
جبين سميرة أثراً عميقاً ، وعاد الشاب الى الجبال ، ينشد  
الطعن والنزال !

ولم تكد تمر شهور أخرى على نشوب الثورة ، حتى كان  
المجاهدون يسيطرون على جزء كبير من البلاد . لكن ملوك  
العرب - نزولاً على رغبة الحكومة البريطانية - ناشدوهم  
بالكف عن القتال ، على أن يتولوا بأنفسهم أخذ حقوق  
العرب بالطرق السياسية السلمية . فأصغى المجاهدون  
لنصيحة . ولبوا الدعوة وانسحبت جموعهم بأعلامها  
ومعداتنا الحربية الى ما وراء نهر الأردن تصحبها أهالي  
القرويين وزغاريد القرويات وعاد كل من حمل السلاح الى  
بيته ينتظر تنفيذ الوعد الذى من أجله كف عن القتال !

وأقامت سميرة زوجة عمر عبد الباقي وابنها كارم مناحة  
فى الدار المنعزلة . وعلقت على الجدار صورتى ولدها رامى  
وابنتها علوية بجانب صورتى زوجها وابنتها زينب ، وقرأت  
مع وحيدها الفاتحة على أرواح الشهداء وقالت : « لم يبق  
لى فى الدنيا سواك يا كارم . فلنقم هنا مرة أخرى ، على  
أننا لن نترك الشار يفوتنا عندما تسنح لنا الفرصة القادمة ! »

وتشابكت أنامل الأم والابن أمام الصور الأربع والسيف  
التاريخي في تكرار القسم ، أمام العبارة المحفورة في النحاس :  
« السيف مفتاح الفرج ! »



مرت أعوام اضطر العرب خلالها الى النزاع السكينة  
والهدوء ، فقد نشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .  
وخدع « الحلفاء » العالم مرة أخرى بوعودهم كما خدعوه  
مرة أولى قبل ذلك بعشرين سنة

راحت أسرة عبد الباقي تضمد جراحها ، وتصلح  
ما أفسدته الظروف من حالها ، وأرادت سميرة أن تحمل  
ابنها الوحيد على الزواج فأبى ، قائلا ان حياته وقف على  
الوطن ، ورهن لطلب الثأر ، وانه لا يرغب في اتخاذ زوجة  
يكون مصيرها كمصير أمه ، وأن الفرصة القسامة التي  
أشارت اليها ، قد لا تكون بعيدة المنال !

ولم تكن تلك الفرصة بعيدة المنال في الواقع ، فقد عاد  
المستعمرون الى سابق غيهم في لبنان سنة ١٩٤٣ . والحرب  
لم تضع أوزارها بعد ، فاندلع لهيب الثورة في الجبل الأبيض ،  
وخيل لكارم بن عمر عبد الباقي أن صوتا يهيب به قائلا :  
« الى سيفك فهو مرهون بمثل هذه الظروف ، ومعد لمثل  
هذه الوثبات ! »

وغادر سيف الأسرة حائطه مرة رابعة ، واجتاز كارم  
الحدود الى جبال الشوف حيث كان المجاهدون يرابطون ،  
ووضع نفسه تحت تصرفهم كما فعل من قبل مع الثائرين  
في مصر وسوريا

ولكن القوة أذعنت في هذه المرة للحق قبل ان يستفحل  
الأمر ، فلم تدم الثورة غير مدة وجيزة ، فاز بعدها اللبنانيون  
بحقهم كاملا غير منقوص ، وعاد كارم بسيفه الى داره  
الرابضة في سفح الجبل ، وحفر الى جانب الأسماء الثلاثة



اسما رابعا : « مصر - فلسطين - سوريا - لبنان » تحت  
العبارة المنقوشة في النحاس : « السيف مفتاح الفرج »  
واستأنف مع أمه حياتهما الهادئة ، في انتظار ما قد تجيء  
به الأقدار



وجاءت الأقدار بما لم يكن بالحسبان !

ففي سنة ١٩٤٨ ، تكاثفت الدول وتآمرت على العرب  
مرة أخرى ، وأقدمت انجلترا على خيانة جديدة اشتركت  
فيها الولايات المتحدة ، فأعطيت فلسطين العربية لليهود  
لكي ينشئوا فيها « دولة إسرائيل » وأمعن الانجليز في  
الخيانة والغدر فانسحبوا من البلاد التي كانت أمانة في  
عنقهم ، بعد ان سلموا بعض مرافقها للصهيونيين ، ومهدوا  
لهم سبيل الاستيلاء على البعض الآخر ...

وعمد عرب فلسطين الى السلاح لينقذوا وطنهم من  
التهويد والاستعباد

وغادر سيف الأسيرة حائطه للمرة الخامسة ، وخاض به  
كارم بن عمر عبد الباقي غمار المعارك الطاحنة ، التي نشبت  
في بادئ الأمر بين المجاهدين العرب والعصابات الصهيونية

وفي ١٥ مايو ١٩٤٨ ، دخلت جيوش الدول العربية أرض  
فلسطين لمنع قيام الدولة البغيضة . ولكن الدهر تعاون  
مع الدول الكبرى وقلب للعرب ظهر المجن !

وانتزع اليهود شطرا من القطر العربي فأنشأوا فيه  
دولتهم . وبقي الشطر الآخر في أيدي أصحابه فضمته  
الدولة الأردنية الى أراضيها ...

فهل رضى العرب بهذا الحل ؟ أم أنهم يضمرون الثأر  
ويعدون العدة لليوم العصيب ؟



« المنزل صغير متواضع ، رابض في سفح جبل من جبال نابلس ، تكتنفه أشجار باسقة ، وتسدل أغصانها حوله ستارا تمتزج خضرته بالأزهار الزاهية ، والمنزل مؤلف من حجرتين للنوم وحجرة للطعام واستقبال الزائرين »  
تنام سميرة في حجرة ، وابنها كارم في الثانية ، وأما الثالثة ، فان الأم والابن يجتمعان فيها للتحدث عن الشهداء الغائبين ، الذين تحيط صورهم بالسيف الأثري في غمده  
والسيف ينتظر الانطلاق من الغمد مرة سادسة ! وكارم يرمقه بنظراته كلما دخل القاعة ، ولكنه لا يزعجه بلمسة ، ولا يستله خارج اقتراب ليفسل الصدا عن نصله فسيوف المجاهدين اذا علاها الصدا ، لا يفسلها غير الدماء في الميادين وهذا ما يراه المجاهد كارم بن عمر عبد الباقي ، وهذا ما تراه أمه سميرة ، زوجة المجاهد وأم المجاهدين . ولهذا فان الأم والابن لا يلمسان السيف بل يتركانه هادئا مطمئنا في غمده ، ويكتفيان كل يوم بقراءة الفاتحة على ارواح شهداء الأسرة الذين قضوا جميعا في الثورات ، وترديد العبارة التي حفرها أبو الأسرة على الغمد النحاسي :  
« السيف مفتاح الفرج ! » على أمل ان تتاح قريبا فرصة جديدة لسليلا الأسرة المجيدة ، ليستأنف جهاده ، ويسعى الى ثأره !

واذا مررت في وضح النهار أمام ذلك المنزل المنعزل ، فانك تسمع صوتا منبعثا من بين البواسق الخضراء الشامخة ، والأزهار العطرة الزاهية ، والصخور الناتئة القائمة ينشد الأناشيد الحماسية ، فيتجاوب الصدى في اعماق الوادي تلك « الردة » التي ينشد الصوت على أنغامها :

« الموت سترة والمذلة تعيبنا ! »

# جبل القسطل

في ٨ أبريل ١٩٤٨ سقط المجاهد العربي  
عبد القادر الحسيني صريعاً في قرية  
(القسطل) ومن قبل ، في عام ١١٧٩  
سقطت الفارسة السورية هيفاء الحموية  
صريعة وهي تتقدم كوكبة من فرسان  
البادية ، في هجومهم على جبل (القسطل) ...  
هذا ! ...

ولد الشهيد الخالد ابن الشهيد الخالد ، عبد القادر  
ابن موسى الحسيني ، في بيت العز والكرم والاقدام ، فنشأ  
عزيز الجانب ، كريم الخلق ، جسورا مقداما . وترعرع في  
كنف أسرة عرفت نبل الاستشهاد وألفته منذ عهد جدها  
الحسين رضى الله عنه ، فسقط في الميدان شهيدا  
مأسوفا عليه

كان عبد القادر الحسيني ، في الحرب العالمية الاولى ،  
طفلا ، يطن في اذنيه هزيم المدافع وازيز الرصاص . حتى  
اذا ما وضعت الحرب أوزارها ، رأى الطفل أن أهله  
وعشيرته وابناء قومه يقاومون عدوا لم يسمع لبطشه ذكر  
فيما سلف من الايام ، ولاكت اللسنة حوله اسم ذلك العدو  
المخيف « الصهيونية ! »

كان الطفل يعرف أن اليهود أقوام ضعفاء مضطهدون ،  
وان العالم بأسره يطاردهم ويذبحهم وينكل بهم ، وان العرب  
وحدهم يحمونهم ويضيفونهم ويردون عنهم الحيف  
والاذى ! فتساءل كيف يقابلون الصنيع الحسن بالفساد  
والاساءة ، وكيف يعضون اليد الوحيدة التي تصافحهم ،  
بينما الايدي جميعا في الشرق والغرب تصسفهم على  
الخددين ؟

شعر الطفل بأن الخطر داهم ، ورأى أباه - موسى كاظم  
باشا الحسيني - يقود الشعب في هذا الصراع الرهيب .  
فخفق قلبه الكبير في صدره الصغير ، وادرك أن عهد  
الطفولة قد ولى قبل الاوان ، وان يده يجب أن تدع جانبا  
تلك الدمى التي يتلهى بها الاطفال وتمتد الى البندقية  
فتعالج زنادها ، والى السيف فتجرده من غمده !

عرف عبد القادر الحسيني منذ نعومة أظافره ، هياح الجماهير واعتصامها بالمتاريس ، وهجومها على المصفحات والرشاشات بالعصى والخناجر والحجارة ، والنساء ينشدن الأناشيد الحماسية : تلك كانت خطواته الأولى في الحياة ، خطوات ثائر يتدرب على الثورة ، ومحارب يتمرن للحرب ، وشهيد يتأهب لساعة الاستشهاد !

كان عبد القادر ثائرا في حياة أبيه ، وثائرا يوم سقط أبوه في الميدان بعد حوادث ١٩٣٣ ، وظل ثائرا يوم انتقل علم الجهاد والزعامة من يد أبيه الى يد ابن عمه الحاج محمد أمين الحسيني ، حتى اذا ما اندلعت نيران الثورة الكبرى ، في سنة ١٩٣٦ ، هرع الشاب عبد القادر وهو في الخامسة والعشرين من العمر الى الجبال بسيفه وبندقيته ، والتحق بالثائرين في منطقة القدس . وخاض للمرة الاولى غمار المعارك مع قائد المنطقة محمد سعيد العاص . ذلك البطل المغوار الذي شاءت الاقدار القاسية ان تحرم فلسطين العربية من نبوغه ، فصرع في الميدان ولفظ انفاسه الاخيرة على صدر معاونه عبد القادر الحسيني

والقى الثائرون السلاح الى حين ، في عام ١٩٣٩ ، اجابة لرغبة ملوك العرب ، ورحل قائد الثورة فوزى القاوقجي عن فلسطين برجاله وعتاده ، ولجأ الى العراق حيث التحق به أيضا عبد القادر الحسيني ، واشترك البطولان الثائران مع رشيد عالي الكيلاني في محاربة الانجليز سنة ١٩٤١ ، فقاد عبد القادر كتيبة من المتطوعين وبدأت بعد ذلك مرحلة الاعتقال والتشريد ، فتنقل الشاب الثائر بين مصر والمملكة السعودية ، يترقب الفرص للانطلاق من جديد الى الميدان ، وقد زادت التجارب اعتقادا بأن قضية وطنه لن تحل الا بذلك السيف الذي داعبه في طفولته ، وتلك البندقية التي عالج زنادها منذ الصغر وسنحت الفرصة المنشودة في عام ١٩٤٨ ، بعد ذلك

القرار الفاشم بتقسيم فلسطين ، واقامة دولة يهودية فيها ،  
وبعد أن اتضح للعرب ان الغرب كاذب مراوغ ، يستخر  
الضمائر للباطل ، ويبيع الحقوق بالمال ، ولا يعطى الا  
ما يؤخذ منه قوة واقتدارا . !

عمد العرب الى سلاحهم قبل أن يعلوه الصدا ، فكان  
عبد القادر أول الثائرين ، وانطلق في طليعة المحاربين ، فعقد  
له لواء القيادة في منطقة القدس ذاتها ، تلك التي شهدت  
وقائعه قبل عشرة أعوام ، والتي سالت في معاركها  
القطرات الأولى من دمائه الزكية

جمع عبد القادر جموع المجاهدين ، وراح يكيل  
للصهيونيين الضربات ، تلو الضربات ، في معارك الطرق  
والتموين ، وعزل مستعمراتهم وتدمير بعضها ، ونسف  
معاقلهم ووكالتهم ، وستدون أسماء تلك المواقع بأحرف  
من نور ونار ، في سجل البطولة العربية الخالدة : القدس ،  
ابن يهودا ، باب الواد ، برك سليمان ، حوريف ، رام الله  
وغيرها وغيرها !

وفي أوائل شهر ابريل ١٩٤٨ ، احتدم القتال في جبهة  
« القسطل » على طريق القدس ، واستبسل العرب ،  
وأوشك اليهود أن يتفوقوا عليهم بالعدد ومعدات الهلاك ،  
وكان عبد القادر الحسيني في دمشق ، فخف الى الميدان ،  
ووثب على جبل القسطل وثبته ، في الثامن من ابريل  
١٩٤٨ ، فقاد المجاهدين للمرة الاخيرة الى النصر ، ولكنه  
لقى في تلك الوثبة حتفه ، ثم لقي ربه بضمير مرتاح وجبين  
مكمل بالغار !



كان عبد القادر الحسيني في السادسة والثلاثين من  
العمر . وقد دفن جثمانه في الحرم الشريف بمدينة القدس  
التي دافع عنها . وترك من البنين أربعة اطفال : هيفاء  
وموسى وفيصل وغازى

ولهيفاء سمية مزجت دمها بتربة القسطل ، في المكان الذي استشهد فيه أبوها ، قبل هذا الاستشهاد بنحو ثمانية قرون ..

كانوا ثلاثة : الاخ الأكبر « سريع » والاخت « هيفاء » والاخ الأصغر « طعان » . وكانوا يحرسون القوافل في سيرها ومسيرها بين مدينتي الموصل وحماه ، مع رفاق ورفيقات لهم من أبناء البادية الرحل الشجعان . وعاشوا مدة من الزمن في وفاق ووئام ، مع المسلمين والمسيحيين من سكان البلاد ، ومع الصليبيين الوافدين من الغرب .. لكن الوفاق والوئام لم يطل زمنهما . فقد هب صلاح الدين الايوبي لقتال الصليبيين ودعا البطل الهمام مواطنيه وبنى دينه الى الانضواء تحت لوائه ، فأسرع اليه الاخوان واختهما مع من هرع الى القتال من بادية الشام وضيقات الفرات

وقعت الواقعة بين المسلمين والصليبيين وتطاحنت الكتائب في الميادين ، وشهدت ارض فلسطين الاهوال من كرف و فر ، وتخریب وتدمير ، وتقتيل وتشريد ..

فقد كتب في صفحة الاقدار ، لهذه الارض المنكوبة أن تحوى اقدس اماكن العبادة لاديان ثلاثة، اليهودية والمسيحية والاسلام ، وان تظل على مر الايام والاعوام والاجيال ، مسرحا للمعارك واهراق الدماء ، وان يتقاتل فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون على السواء !

دارت في شهر نوفمبر عام ١١٧٧ رحي معركة هائلة بين جيش صلاح الدين الايوبي ، وجيش ملك اورشليم بلدوين الرابع ، امام اسوار عسقلان . وكان الاخوة الثلاثة يحاربون في صفوف المسلمين . فدارت الدائرة في تلك المعركة على صلاح الدين ورجاله ، وتراجع السلطان الى مصر بالبقية الباقية من جيشه ، تاركاً في التلال المحيطة بعسقلان آلافا

من جثث القتلى ، بينها جثة « سريع » الحموى ، أحد  
الاخوة الثلاثة . ولجأ طعان وأخته هيفاء الى بلاد مرجعيون  
ببلبنان ..

وراح الصليبيون يحصنون مملكتهم ، ويشيدون القلاع  
على الجبال والمرتفعات ويطلقون عليها مختلف الاسماء :  
« كاستيل نوف ، كاستيل هو ، كاستيل فور ، كاستيل مون »  
ومعناها القلعة الجديدة ، والقلعة العالية ، والقلعة المنيعه ،  
وقلعة الجبل - وهى اقرب القلاع الى بيت المقدس

لم يركن صلاح الدين الى الهدوء طويلا . فقد عاد للاخذ  
بالتأر ، على رأس قوة لجبة ، تزايد عددها مع الايام بمن  
التحق بها من المقاتلين ، وقد جاءوا من الشمال والشرق ،  
من الجبال والسهول ، يطلبون الثأر مثل صلاح الدين ،  
ويتوقون مثله الى القتال

وفى سنة ١١٧٩ ، كان السلطان المظفر قد اخترق البلاد  
الفلسطينية من جنوبها الى شمالها ، وتوغل في جبل عامل  
من سلسلة الجبال اللبنانية . وهناك ، حول قلعة مرجعيون ،  
نشبت المعركة بينه وبين الصليبيين ، فدارت الدائرة في  
هذه المرة عليهم ، ومحا صلاح الدين بهذا الفوز الباهر ،  
وصمة الهزيمة التى لحقت به في عسقلان . وكان ذلك فى  
العاشر من شهر يونيو عام ١١٧٩

واشترك طعان وأخته هيفاء فى هذه المعركة ، وانتقما  
لدم أخيهما سريع ، بعد سنتين من مصرعه !

ووجه صلاح الدين همه منذ ذلك الوقت الى الاستيلاء  
على القلاع التى شيدها الصليبيون فوق الجبال والمرتفعات ،  
فسير الكتائب ، لاقتحامها والبقاء فيها ، أو لهدمها على  
رؤوس أصحابها !

وانطلق طعان الحموى مع رجال احدى هذه الكتائب ،  
وقادت أخته هيفاء سرية من البدويات ، امتطين الخيول  
والتحقن بالكتيبة لاخذ نصيبهن من الجهاد



وكان هدف الكتيبة موقع « كاستيل مون » أى قلعة الجبل ، فى طريق القدس . وشاءت الاقدار أن تسقط الفارسة هيفاء الحموية صريعة بضربة سيف ، فى الهجوم الذى أسفر عن استيلاء الكتيبة العربية على الحصن . وكان ذلك فى منتصف شهر يوليو سنة ١١٧٩

وكان العرب يسمون هذه القلاع « القساطل » ومفردها « قسطل » بتحريف الاسم الاصيل « كاستيل » وبقيت بعض المواقع فى فلسطين ولبنان ، حيث بقايا الحصون الصليبية القديمة ، تعرف بهذا الاسم الى يومنا هذا . . . غير أن مصرع هيفاء الحموية فى « جبل القسطل او قسطل الجبل » لم يعدم من يثار له ، ودمها لم يبق مطلولا بعد اهراقه . فقد واصل أخوها الصغير طعان الحموى القتال فى كتاب صلاح الدين ، وساعده الحظ فظل يتنقل مع الفاتح العظيم من ميدان الى ميدان ومن نصر الى نصر ، فساهم فى المعركة العظمى التى فتحت لصلاح الدين الطريق الى بيت المقدس ، وقضت على الدولة الصليبية فى اورشليم ، وهى معركة حطين فى الرابع من شهر يوليو ١١٨٧

وكان طعان ، اخو سريع وهيفاء واحدا من أولئك الابطال الصناديد الذين وقع عليهم اختيار السلطان لتأليف حرسه الخاص منهم فى المدينة المقدسة !

ليست هذه قصة « عبد القادر الحسينى » وليست هذه قصة « هيفاء الحموية » بل هى قصة كل مجاهد عربى وكل مجاهدة عربية !

لم يبق من « قساطل » الامس غير الذكرى ، واكوام من الحجارة المتراكمة حيث كانت تقوم الاسوار الشامخة والابراج الشاهقة . .

ولن ينجح الصهيونيون فى تشييد قساطل جديدة ، مكان القساطل المهدامة ، ليهددوا منها كيان العرب فى فلسطين اذا كان كل عربى « عبد القادر » وكانت كل عربية « هيفاء ! »



# الرجيف الأحمر

لكل شعب عاداته وتقاليده . ومن  
عادات العرب وتقاليدهم تبادل (( الرجيف  
الأحمر )) طلباً للنجدة في غزو أو حرب  
أو ثأر

توافد سكان « صفد » على ساحة البلدة رجالا ونساء ،  
تلبية لدعوة المنادى ، الذى دوى صوته فى الحواري والأزقة  
فانتظم عقدهم حول النار المتقدة فى وسط الساحة ، ووقف  
فيهم « ضرغام الحوراني » خطيبا ، فقال : « يا أبناء صفد  
الميامين ، لقد أزفت الساعة التى طالما ارتقبناها للأخذ  
بثأرنا من عثمان باشا الصادق ورجاله . فان أميرنا الشيخ  
ضاهر العمر يدعونا إلى حمل السلاح مرة أخرى ، فعلينا  
أن نهرع إلى الميادين ، اجابة لرغبته وطلبنا للثأر من أولئك  
الذين ذبحوا نساءنا ! »

وتناول ضرغام من تحت معطفه خمسة أرغفة من الخبز  
وأشار إلى أخيه « منصور الحوراني » فقاد إلى وسط  
الحلقة جديا من الماعز ، وإلى أخيه الثانى « يوسف الحوراني »  
فاستل خنجره ، ونحر الجدى ، فتدفق دمه فى أناء من  
النحاس ، وحينذاك شمر ضرغام عن ساعديه ، وغمس  
الأرغفة الخمسة فى ذلك الدم الفائر ورفعها الواحد بعد  
الآخر فوق رأسه ، وصاح برفاقه قائلا : « أيها الاخوان !  
ليحمل خمسة رسل منكم رغيفا مخضبا بالدم إلى كل قرية  
من القرى الخمس القريبة من بلدتنا . وعلى كل قرية ترغب  
فى الحرب أن تتقبل الرغيف وتبعث بمثله إلى القرية المجاورة  
لها . وعلى الله الاتكال ! »

كان الشيخ ضاهر العمر ، من أبناء صفد ، يحكم البلاد  
المتدة من مجرى الأردن شرقا إلى ساحل البحر غربا ،  
ومن تخوم لبنان شمالا إلى ضواحي القدس ويافا جنوبا ،  
وكان أبناؤه الثمانية يعاونونه فى المحافظة على الأمن والنظام

وجباية الضرائب ، وجميعهم أبطال صناديد ، يحسب لهم  
الولاية الترك ألف حساب ، ولا تنكس لهم في الميادين أعلام !

عقد الشيخ ضاهر العمر محالفة مع صديقه على بك  
الكبير حاكم مصر ، واتفق الرجلان على استقلال كل منهما  
في أمارته ، هذا في القاهرة ، وذاك في عكاء . وأوفد على  
بك الكبير أشهر قواده ، محمد أبو الذهب ، الى فلسطين  
لتأمين حدودها وشد أزر العمر في محاربة الترك ، لكنه  
انسحب فجأة عائدا الى مصر ، وحامت حوله الشكوك  
والريب ، وعاد عثمان باشا الصادق - حاكم دمشق باسم  
السلطان - يتحرش بأمر عكاء ويتحين الفرص للانقضاض  
عليه ، قبل أن يدركه حليفه المصرى بنجدة أخرى !

وجعل كل من الخصمين ، الباشا التركي والشيخ العربي ،  
يقوم بغارات متفاوتة على أملاك الآخر ، وغزوات يعود منها  
بالأسلاب والأسرى ، استعدادا للمعارك الحاسمة

وحدث مرة أن فاجأ كمين من جنود عثمان باشا في سهول  
حوران قافلة عربية قادمة الى صفد ، يقودها ضرغام  
الخوراني ومعه أخوته الثلاثة يوسف ومنصور وكليب ،  
وأخته حسنه . فنكل الجنود بالقافلة تنكيلا فظيما ، وقتلوا  
فريقا من رجالها ونسائها ، ونهبوا ما كانت تحمله من عتاد  
وأرزاق ، وكان بين القتلى كليب الخوراني وأخته حسنه . .  
أما قائد الكمين فكان أحمد بك البورصلي أحد أعوان الباشا  
وأخصائه

وكظمت أسرة القتيلين غيظها ، وأقسم الاخوة الثلاثة ،  
ضرغام ومنصور ويوسف ، أن يثأروا للدم المسفوك ، وباتوا  
ينتظرون في صفد مسقط رأسهم ، الفرصة السانحة للانتقام  
من عثمان الصادق ورجاله ، الى أن أتاحت لهم في صيف  
سنة ١١٨٤ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٧٧٠ للميلاد . فقد  
عزم والى دمشق على مباغته خصمه ، وزحف على أمارته

بجيش مزود بالمدافع ومعدات الحصار ، يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، فوصل الى نهر الأردن ، واجتازه بدون أن يشعر به الشيخ ضاهر العمر ، وعسكر على ضفته الغربية تجاه بحيرة طبريا ، وتحفز للوثوب منها على صفد آملا أن يأخذها عنوة ، ثم ينقض منها على عكا عاصمة الشيخ المنيع !

بلغ مسامع العمر وأبنائه خبر وصول ذلك الجيش القوي الى النهر وانشاره في الوادي ، فعولوا على مهاجمته قبل أن يرفع مضاربه ، وانطلق رسل الشيخ في الجبال والسهول والقرى والحقول ، يستنفرون الناس للقتال ، ويواعدونهم على اللقاء في صفد . . وخفقت قلوب أبناء الحوراني الثلاثة وطربت نفوسهم فرحا ، فأقاموا ذلك الحفل المشهود في ساحة بلدتهم ، وأوقدوا النيران فيها وعلى قمم الجبال ووزعوا رسلهم على المزارع والقرى المجاورة ، يحملون اليها الأرغفة المغمسة بالدم !

وغمس الأرغفة بالدم عادة متوارثة بين العرب في فلسطين من قديم الزمان الى يومنا هذا . فان طالب الثار من قاتل أو الراغب في التمرد على مستبد ظالم ، أو الداعى الى الثورة على أجنبي دخيل مفتصب ، يعمد الى رغيف يخضبه بدم جدى ، أو كبش، وأحيانا بدمه هو ، ثم يرسله من قريته الى القرية المجاورة يستنهض همم رجالها لنجدته فتبادل القرى ، الواحدة مع الأخرى أرغفة حمراء تقطر دما ، معناها : « ليبق في عقر داره من يقنع بالحياة الذليلة مع الخبز النقى ، وليتبعنا من يتوق الى حياة حرة ، وأن كان خبزها مغموسا بالدماء ! »



وصل الشيخ ضاهر العمر وأبنائوه ورجالهم الى القمم المشرفة على وادي الاردن حيث رابط عثمان باشا وجنوده،

وكان الوقت ليلا ، فأصدر الشيخ أمره الى أبطاله بأن  
يزحفوا على بطونهم كيلا تأخذهم العيون . فصدعوا للأمر  
حتى اذا ما انتشروا حول المعسكر ، وبزغ الفجر، تصاعدت  
من كل جانب صيحات الهجوم ، فانقضوا جميعا على جيش  
عثمان ، وفي أقل من ساعتين تشتت في الوادي عشرة  
آلاف جندي ، يطاردهم بضع مئات من العربان وأبناء  
الجبال من فلسطين ولبنان ، ويعملون فيهم الرماح  
والسيوف والخناجر !

غرق في نهر الأردن فريق من المهزومين ، ووصل الفريق  
الآخر الى البحيرة فغرق فيها ، ولم ينج من ذلك الجيش  
القوى غير عشرات ممن يجيدون السباحة خوفا ، أو  
الجرى ركضا ، أو ممن احتفظوا بخيولهم فابتعدوا على  
متونها عن ساحة المجزرة . وأوشك عثمان باشا الصادق أن  
يفرق كما غرق غيره ، لو لم يدركه بعض رجال حرسه  
الماليك وينقذوه من الهلاك

وفي حومة الوغى ، ظل أبناء الحوراني يبحثون بين المقاتلين  
عن ذلك الذي قاد الكمين في سهل حوران، فعثر عليه ضرغام  
وهو يحاول عبور النهر على جواده طلبا للنجاة ، فأدركه  
في وسط الماء ، ووثب على كفل الجواد ، واحتضن الفارس  
فذبحه ذبح الأنعام ، وفصل رأسه عن جسده ، وألقى بها  
الى أخويه اللذين كانا يشاهدان ذلك المنظر الفظيع من  
ضفة النهر !



فر عثمان باشا الصادق الى عاصمة ولايته مكسورا  
ذليلا ، ومات أحمد بك البورصلى مذبوحا بيد ضرغام  
الحوراني ، وعاد الشيخ ضاهر العمر برجاله الى صفد  
وعكاء ، يسوقون أمامهم خيول الجيش المنهزم محملة



بالأسلحة والمؤن والدخائر ، واستقبلت القرى الفلسطينية  
أبناءها المنصورين بالتهليل والتكبير ، وأنيرت فبدت كأنها  
مشاعل من نار ، وزحف على ابن الشيخ ضاهر على دمشق  
فهدم أبراجها وقواعد المدافع المنصوبة حولها ، بينما انصرف  
أبوه وقد جاوز الثمانين من العمر ، الى تنظيم شئون أمارته  
العربية ، بعد أن أمن الفارات الخارجية ، والدسائس  
الداخلية

وحل الفرع محل الكآبة في نفوس أبناء الحوراني الثلاثة ،  
بعد أن ثأروا لأخيههم كليب وأختهم حسنة ، ومحووا العار  
بالعار ، وغسلوا الدم بالدم !

# حنّوا السيوف

إذا أردت أن تعرف مبلغ الاندفاع عند  
شعب يحارب ، فاستمع إلى أهليجه  
في الحرب

السلطان سليم العثماني

صحا سكان « الخليل » في الصباح المبكر من نومهم على صوت يرسل في الفضاء صيحات منكرة : « يا غيرة العرب ! يا شباب الخليل ! » وكان الصوت صوت امرأة ، ولأصوات النساء الناديات أو المزغردات أو الهازجات ، وقع شديد في نفوس أبناء الجبال وسكان الصحارى على السواء ..

هب الناس من رقادهم ، وأطلوا من الأبواب والنوافذ ، فاذا بهم يرون المرأة صاحبة الصوت : هي « عالية » بنت سليم الرفاعى ، من أبناء القدس المستوطنين في مدينة الخليل ، وقد حلت شعرها ، ومزقت ثوبها ، ورفعت فوق رأسها سيفاً أمسكت قبضته باحدى يديها وطرف نصله باليد الأخرى ، وقد خضبتهما بالدم ، وراحت تطوف في الطرقات وبين المنازل ، وتنشد بلهجة حماسية :

حنوا السيوف العالية

حنوا السيوف العالية

حنوها بنت الخليل

أخت الرفاعى - عالية !

هرع أبناء الخليل نحو الفتاة قلقين سائلين : « ماذا حدث يا عالية ؟ »

فصاحت بهم الفتاة : « شرذمة من الجنود الأرناؤوط داهموا الدار ، فقتلوا أخاكم أخى دياب الرفاعى ، وأضرموا النار في القبو المملوء بالخطب ، وواصلوا سيرهم نحو الجنوب ! وها هو دم القتيل يطلب الثأر وقد حنيت به كفى ، وسوف احنيهما بدم القتلة السفاكين ! »

فتصاعدت من كل فج وصوب أصوات شبان الخليل  
هاتفين : « لبيك يا عالية ! »

فما الذى حدث ! ومن هم أولئك الجنود الأرناؤوط  
التابعون للجيش المصرى وكيف قتلوا بريئا ، وعهد الناس  
بهم لا يمدون بسوء الى أحد يدا ؟



كتب النصر فى الميادين للجيش المصرية ، منذ أن زحفت  
فى سنة ١٨٣٢ ، فهزمت جحافل السلطان فى جميع المعارك  
التي خاضت غمارها ، وتم لها الاستيلاء على جبال لبنان  
وسهول سوريا وبطاحها . غير أن الغزاة اضطروا الى  
تجريد حملات تأديبية ، لاختماد الفتن المحلية ، التي ظل  
عمال الباب العالي وحكام المقاطعات يثيرونها فى بعض المناطق  
الوعرة ، للاخلال بالأمن ، ومنع المصريين من تثبيت أقدامهم  
فى البلاد التي فتحوها

وقد بلغت تلك الفتن أشدها فى سنة ١٨٣٤ ، ولقى  
المصريون عناء كبيرا فى القضاء عليها . وكان بين العصاة  
الثائرين رجل من عربان « الصفاء » يدعى « فوزان الأدرعى »  
ضرب فى ميدان الفروسية بسهم وأفر ، وتكل بالحاميات  
المصرية تنكيلا أثار غضب القواد المصريين ، فاعتزموامطاردة  
الثائر ، وأوفدوا واحدا منهم الى نابلس حيث قيل لهم أن  
الفارس العربى قد اعتصم بالجبال . ولكنه لم يدركه هناك  
بل علم أنه فر نحو الجنوب مع أهله وأعوانه . فعهد الى  
شرذمة من الفرسان البدو والأكراد والأرناؤوط فى تعقب  
آثار « الأدرعى » على أن يلحق بهم على رأس قوة من الجنود  
المصريين والمقاتلين اللبنانيين . فانطلقت تلك الطليعة فى  
المسالك الجبلية ، حتى جاوزت القدس ، وما لبثت أن  
أطلت على مدينة « الخليل » وهناك علم الفرسان من الرعاة

المنتشرين في الجبال ، أن فوزان الأدرعى قد سبقهم في طريقه إلى صحراء سينا ، وأنه قضى يوما وليلة في ضيافة دياب الرفاعى ، بمنزله القائم في مدخل البلدة ، ولكنه انطلق بعد ذلك في صحراء « بئر السبع » حيث يصعب اللحاق به استشاط الفرسان غيظا لأنهم كانوا يرومون القبض على الثائر قبل وصول القائد وجنوده ، طمعا في المكافأة التي وعد بها من يأتيه بذلك الزعيم الخطر حيا أو ميتا . فاحدقوا بمنزل الرفاعى الذى أضاف الرجل ، ووجدوا فيه صاحب الدار فقتلوه ، واخته عالية فاهانوها ، ثم واصلوا السير تاركين وراءهم المضيقة التى آوت فوزان الأدرعى تلتهمها النيران !



لحق بهم ثلاثون من أبناء الخليل الأشداء ، تتقدمهم عالية بنت الرفاعى وغيرها من نساء البلدة ، ينشدون الأهازيج الحماسية ، ويلوحن بسيوفهن على ظهور الجياد ، ويرددن صيحة الفتاة التى أيقظت السكان من نومهم : « حنوا السيوف العالية » حتى داهموهم في واد تحيط به الصخور الشاهقة ، على مسافة بضع ساعات من البلدة ، فكان الثار لدياب الرفاعى فظيحا في قسوته ، حتى أنه لم ينج من الجنود غير ثلاثة تمكنوا من الفرار بفضل خيولهم السريعة فهاموا على وجوههم في الصحراء ، بينما عاد أبناء الخليل ادراجهم يسوقون أمامهم خيول الجنود وقد انفرجت أساريهم ، وعلا البشر وجوههم ، وانطلقت أصواتهم في الفضاء تنشد نشيد نشيد الظفر :

حنوا السيوف العالية

حنوا السيوف العالية

حنوها أولاد الخليل

بالدماء الغالية !

وعلم القائد بما لحق طليعة قوته من هزيمة وفتك ذريع،  
فبلغ الهياج منه مبلغا ، وعزم على تأديب الذين تجرأوا على  
فرسانه ، ومضى الى مدينة الخليل ، مقسما أن يجعلها عبرة  
لكل من تحدته نفسه بالانتقاض على سلطته ، والاعتداء  
على رجاله

وفي مدخل المدينة ، أمام بيت لم يبق منه غير جدران  
سوداء ، تجمعت حولها أكوام من الرماد : وجد القائد في  
استقباله ثلاثين فارسا يحيونه بالسيوف المشرعة ، وحولهم  
بعض النساء السافرات ، يزغردن ويهتفن مرحبات  
بالقادمين . . وتقدمت منه فتاة ممشوقة القامة ، جهورية  
الصوت ، ممتلئة الجسم ، عليها مسحة من الجمال الجبلي  
القروى ، وقبل أن يوجه اليها القائد كلمة ، خاطبته قائلة :

— انت قادم للاقتصاص من الذين فتكوا برجالك .  
نحن الذين فتكنا بهم . مر بقتلنا جميعا ، وانا واخواني  
في الطليعة ، ودع أهل البلدة في أمان ، لأن ليس بينهم مذنب  
غيرنا !

دهش القائد لجرأة الفتاة ، ولكنه انتهر بنت الرفاعي  
صائحا : « لقد اعتديتم على جنودي ، وستعاقب البلدة  
كلها على ذلك الاعتداء ! »

— ولكننا لم نكن البادئين . بل كان اعتداؤنا انتقاما  
وثاراً لدمنا المسفوك ظلما وغدرا !  
— كيف ذلك ؟

— قتل الجنود أخى ، لأنه أضاف رجلا هاربا استجار به !  
لم يكن القائد قد أطلع بعد على تفاصيل ما حدث ، بل  
كان يعتقد أن العدوان الذى وقع على جنوده ، لم يكن غير  
حلقة من سلسلة الثورات التى نشبت فى جبال سوريا  
وسهولها ، فترجل عن جواده ، وجلس على حجر فى وسط  
الطريق ، وأحاط به قواده ورجاله ، وجعل يصفى مرهف

السمع الى ما قصته عليه الفتاة الخليلية ، وحينئذ عرف  
أن الحق معها ومع رفاقها. وأن أولئك المرتزقة من المتطوعين  
الذين انضموا الى الجيش المصرى قد خالفوا الأوامر  
باعتمادهم على الأبرياء المسالمين ، وأنه لم يكن فى استطاعة  
الرفاعى وأخته أن يصدّا عن بابهما ضيفا ، أو أن يقدرا  
بذلك الضيف ، ويخونا النقايد المورونة عند العرب منذ  
القدم



نهض القائد بعد سماع قصة الفتاة الشجاعة ، ومد يده  
قائلا : « صافحينى يا عاليه ! لقد تم لك الانتقام ، وأخذت  
بتأر أخيك ، فقرى عينا وليطمئن بالك بعد اليوم . ولكننى  
أريدك من الآن فصاعدا ، صديقة لنا لا عدوة . وأريد أبناء  
الخليل حلفاء أوفياء ، لا عصاة ثائرين ! »

فقلت الفتاة : « نحن معكم ولكم ! »

وأقرها رفاقها على هذا القول . وعادوا الى المدينة  
يحملون الى السكان البشرى السارة : ان المصريين قد عدلوا  
عن محاربتهم ، وأقروهم على الأخذ بثأرهم ، فارتفعت فى  
أنحاء البلدة أصوات الرجال والنساء ، تهتف وتردد :  
« حنوا السيوف العالية .. ! »

وظل أبناء « الخليل » المغاوير يرددون هذا النشيد  
الحماسى ، منذ ذلك العهد ، كلما حلت ببلدتهم محنة أو طرا  
على وطنهم العربى طارئ سوء ، فجردوا السيوف من  
أغمدها وخرجوا الى حرب أو ثورة !



# مریم .. واسماعیل

الفرد یجَاهِد فی سبیل حریتہ کما  
تجَاهِد الأمة فی سبیلہا

إذا توغلت في جبال سيناء ، أو طفت في صحراء النقب  
أو سهول بير السبع أو هضاب الخليل ، ونزلت ضيفا على  
العربان هناك ، وجالستهم ليلا في مضاربهم أو حلقات  
أحيائهم ، فانك تسمع منهم كثيرا من الاحاديث الطلية ،  
والاساطير الخيالية ، والاقاصيص الواقعية التي يزخر بها  
تاريخ القبائل البدوية ، ويتناقلها الرواة ابا عن جد من قديم  
الزمان الى الآن ..

ومن تلك الروايات التي ينشدها المنشدون على أنغام  
الرباب « قصة مريم واسماعيل » التي وقعت حوادثها في  
أوائل القرن التاسع عشر ، والتي يتغنى بها العربان ولكنهم  
يجهلون أصلها واسماء أبطالها ، ولا يحددون لوقائعها مكانا  
معينا وتاريخا مربوطا

واليك القصة كما يروونها ، مضافا اليها مالا يذكرون من  
تفاصيلها :

وقعت معركة ذات يوم بين جماعة من العربان والجنود  
وكان يقود العربان في تلك المعركة الشاب اسماعيل بن أحمد  
ابن بشير ، وهو من أفرس فرسان البادية ، ومن أبطال  
الحروب الذين لا يشق لهم في الميادين غبار

كان ذلك في أول عهد ولاية عبد الله باشا الخازندار على  
عكاء وتوابعها وملحقاتها ، أي حوالي سنة ١٨٢٠ ، وكان  
درويش باشا في ذلك الوقت على رأس ولاية دمشق . أما  
مدينة القدس ، فكان الواليان يتنازعان السلطان فيها ،  
فتخضع حينها لعكاء وحينها لدمشق ، ويستنزف ثروتها  
تارة درويش وتارة عبد الله !

هزم العربان في معركة الجليل ، وسقط زعيمهم اسماعيل

جريحاً في حومة القتال ، فقبض عليه الجند وحملوه معهم  
على بعير الى القدس ، حيث سلموه لسيدهم المتسلم ،  
الذى اغتبط لهذه الغنيمة ، على أمل أن يحمل والد الشاب ،  
وهو من شيوخ العشائر الاغنياء المسموعى الكلمة ، على  
افتداء ابنه بالمال والخيول والجمال ..

وكان في دير « الارض المقدسة » طبيب يدعى « يوحنا  
ابن تميم » يعالج المرضى بالاعشاب وعصير الاثمار ، ويقوم  
بأعمال الترجمة بين الحجاج المسيحيين الاغراب وأهل  
البلاد . فأرسل المتسلم في طلبه ، وقال له ما معناه :

— ان هذا الشاب عزيز على . وهو مصاب بجراح خطيرة .  
فعلبك أن تداويه وتعيده الى سالمنا معافى . فاذا نجحت  
شكرتك . واذا فشلت قتلتك !

وأخذ الطبيب الشاب البدوى الى بيته ، بجوار الدير  
الذى يعمل فيه ، وجعل يتفنن في علاجه ، ويتفانى في  
السهر عليه ، خوفاً على حياة المريض وعلى حياته  
في آن معا . وعاونته في مهمته ابنته الوحيدة « مريم »  
المشهورة في المدينة بجمالها الرائع ، واخلصها لابيها ،  
وعنايتها بمرضاه

وأشفق الله على الاب والبنت معا ، فنجا الجريح من  
الموت ، وابتعد عنه شبح الخطر ، فالتأمت جراحه ، وجعل  
يسترد قواه شيئاً فشيئاً ..

وتسلل الحب الى قلبه أيضاً شيئاً فشيئاً ، ولم يكن  
تعلق الفتاة بالشاب الذى عالجه وانقذته ، بأقل من تعلق  
اسماعيل بن احمد بذلك الملاك الطاهر ، الذى أعاد اليه  
الحياة والامل والرجاء !

ولم يفتن الطبيب الى ما يدور بين الشاب وابنته من حب  
مشترك ووعود متبادلة ، وحله عطفه على البدوى ، ورغبته  
في ابقائه بعيداً عن متناول يد المتسلم الطامع فيه وفي فديته ،

على الادعاء بأن الجراح لم تلتئم بعد ، وان الشاب لا يزال في حاجة الى الراحة لاتمام العلاج ..

وحدث في أثناء ذلك أن حلت نقمة درويش باشا بمتسلم القدس ، وطمع في الاستئثار بما كان المتسلم يستولى عليه من ضرائب ورسوم وغرامات ، فأرسل في طلبه الى دمشق ، وبعث اليه يوم وصوله بمن يقتله في فراشه ، وأوفد الى القدس رجلاً من أخصائه ليتولى ادارتها بالنيابة عنه .. وعلم عبد الله باشا الخازندار والى عكاء بما حدث ، فأوفد من ناحيته رجلاً من صنائعه ليمنع المتسلم الجديد من تولى الحكم باسم صاحب دمشق ..

وأدرك المقدسيون انهم قادمون على مرحلة جديدة من مراحل البؤس والشقاء والفرع ، وان اقتتال الحكام على الحكم سيجبر على السكان الويلات والكوارث ، وانهم سيدفعون ثمن ذلك التطاحن من دمائهم واموالهم واملاكهم! وعندما بلغ مسامع الطبيب يوحنا بن تميم ما صنعه صاحب دمشق ، وما صنعه صاحب عكاء ، وما ترتب على ذلك من انتقال السلطة في المدينة من يد المتسلم السابق الى يد متسلم لاحق ، اسرع الى ضيفه البدوى ، ووجهه يطفح بشرا وقال :

— لقد تعهدت بأن انقذك من الموت وأعيدك سالماً معافى الى المتسلم الذى ذهب . وقد انقذتك الآن من الموت ولكن ليس بينى وبين المتسلم القادم عهد بأن أعيدك اليه ، فأنت منذ هذه اللحظة حر فى الذهاب الى حيث تشاء . فارحل يا بنى عن موطن الخطر ، لان بقاءك هنا يعرضك فى كل يوم لنقمة الحكام الذين لا يضمرون لقومك من أبناء الصحراء غير الشر والاذى .. اذهب ، ليحرسك الله فى الحل والترحال! لكن الشاب رفض العمل بنصيحة منقذه ، وأجاب بلهجة لم تترك مجالاً للرد والالجاج :

— لن أرحل وحدي : فاما ان نذهب معا ، واما ان نبقي معا . : ! فان الخطر محقق بكما هنا ، أنت وابنتك ، بقدر ما هو محقق بى . وحياتكما مهددة مثل حياتى . وقد أصبحتما جزءا من أسرتى ، وقومى هناك ، فى صحراء غزة ، ينتظرون ويرقبون . فلنذهب معا اليهم ، وسنكون فى كنفهم بعيدين عن كل خطر وتهديد . بل يكون مقامنا هناك أمان من أوكار الصقور !

تردد الطبيب فى بادىء الامر ، وأبى ان يغادر البيت الذى عاش فيه والدير الذى يشارك رهبانه فى أعمال البر والاحسان والمؤاساة . ولكن الفتاة عرفت كيف تتنيه عن عناده ، وتقنعه بوجوب الرحيل عن بلد لم يعد الامن فيه مضمونا ، ولا البقاء ميسورا . وكانت عاطفة الحب فى صدر الفتاة متزايدة السعير ، فاستمدت منها مريم العاشقة لحجتها بلاغة ، وللسانها فصاحة ..

فاقتنع فى النهاية يوحنا بن تميم بوجوب الرحيل عن بيت المقدس ، والتوجه مع ابنته واسماعيل بن احمد بن بشير الى ربوع غزة هاشم حيث مضارب العربان ، وحيث السلام والامان !

لكن الحوادث تتابعت بسرعة لم تدع للثلاثة فرصة تنفيذ خطة الهرب من المدينة بدون أن يلفتوا اليهم الانظار . فقد اشتبك الجنود من أنصار المسلم الدمشقى ، بالجنود من أنصار خصمه المسلم العكاوى ، فدب الرعب فى قلوب السكان ، وأوصدوا على أنفسهم أبواب المنازل ، وراحوا يضرعون الى الله طالبين انقاذهم من تلك المحنة المصحوبة بالنهب والسلب وسفك الدماء ..

وقيل ليوحنا بن تميم ان الجرحى كثيرون ، وانهم يئنون فى الطرقات فلا يسعفهم أحد بعلاج . فخرج الطبيب من

بيته فلبيا صوت الواجب ، واسرع الى صديقه « يوسف  
البندقلي » رئيس حرس الحرم الشريف ، ودعاه الى مرافقته  
في أزقة المدينة وحواريها ، للبحث عن المصابين المهملين ..

ولم يعد يوحنا الى البيت !

بل عاد اليه صديقه البندقلي وحده ، واطلع الفتاة  
المسكينة على الحقيقة الرهيبة : فان أباهما سقط قتيلًا بيد  
جندي من جنود المتسلم السابق ، وقد صاح ذلك الجندي  
في رفاقه قائلاً :

— اتبعوني الى بيت الطبيب يوحنا ، فان فيه مالا وفيرا .  
وفيه ماهو اعز من المال .. فيه الاسير العربي الذي  
احتفظ به المتسلم رهينة لديه لمطالبة أهله بافتدائه ..  
وسوف تأخذه الى العربان وتقبض الفداء او نقتله ! .. وفي  
بيت الطبيب أيضا فتاة لا تجاريها في الجمال فتاة ! .  
وهي لنا .. !

لم يبق اذن امام الفتاة والشاب غير الهرب في الحال ..  
بل لم يبق امام الفتاة من الوقت ما يكفي للبحث عن جثة  
أبيها ، او ذرف الدموع عليها ..

خرج الشابان من البيت بدون أن يتمكنوا من العثور  
على النقود القليلة التي ادخرها الطبيب للأيام السود ،  
فأسعفهما يوسف البندقلي بالقليل الذي كان يحمله فانطلقا  
في طريق بيت لحم ، على أمل أن يجدا فيها مأوى هادئاً  
أمينا ...

ولكن هذه البلدة لم تكن أحسن حالا من بيت المقدس ،  
فقد عمها الرعب أيضا وانتشرت فيها الفوضى ، فتركها  
اسماعيل ومريم ، وسلكا الطريق الى جبال الخليل ..

وهناك زال الخطر ، وابتسم الرجاء للشباب والفتاة ،  
فاستعدا قواهما ، واستأنفا السير والمسير في الصحراء ،

متجهين نحو الغرب ، حيث مضارب العشيرة في سهل غزة  
ووصلوا اليها بعد جهد وعناء ، فعانق الشيخ احمد ابنه  
اسماعيل ، ورحب بالغريبة التي تصحبه ، وهلل الرجال  
وزغردت النساء ..

ونحرت الذبائح ابتهاجا بعودة الشاب الى أهله وعشيرته  
ولكن الفتاة مريم بنت يوحنا كانت على آخر رمق من  
الحياة ! ..

وقال اسماعيل لابييه :

— لولا هذه الفتاة يا ابي لما رأيت ابنك من جديد ولما  
ضممته الى صدرك ! فقد اعاد الى أبوها الحياة ، وأعادت  
الى مريم الرجاء ، فانتقاذاها واجب علينا ، بل دين يتحتم  
علينا ايفاؤه .. اين أطباء العشيرة ليعيدوا اليها الحياة ..  
أما الرجاء فأنا وحدى الكفيل باعادته الى نفسها !

وتفنن الاطباء في معالجة الفتاة كما تفنن من قبل يوحنا  
بن تميم في معالجة فتاهم ، وتفانوا في السهر عليها كما  
تفانى ابن تميم من قبل في السهر على جريحهم ، ولم تكن  
عناية اسماعيل بمريم اقل اخلاصا من عناية ابنة الطبيب  
الحضري بابن الشيخ البدوي ..

ولكن التفنن والتفانى والعناية والاخلاص ؛ كلها في هذه  
المرّة ذهبت سدى ولم تجد نفعا ..

فقد ماتت مريم بنت يوحنا من الحزن ، والالام ، والتعب ،  
والاعياء ..

ماتت الحبيبة بين أحضان الحبيب قبل ان يرتشف  
الاثنان كأس الحب ويتذوقا طعمه ويقطفوا ثماره ..

ودفنت العشيرة جثة الفتاة المسكينة في ظلال النخيل ..  
وهام اسماعيل على وجهه ! ..

حاول أبوه وأهله ورفاقه عبثا ادخال العزاء الى نفسه ،



فان الشاب العاشق الولهان تحول من التفكير الى الدهول ،  
ومن الدهول الى الجنون !

وكانت خاتمة مأساته ، الامتناع عن الطعام والموت من  
الجوع !

ودفنت العشيرة فتاها جنبا الى جنب مع فتاته ..

ومنذ ذلك الوقت ، ينشد المنشدون ، ويعزف العازفون ،  
ويروى الرواة ، في جبال سيناء وصحراء النقب وسهول  
بير السبع وهضاب الخليل ، قصة « مريم واسماعيل » !

# مّوال لبّنانى

فى سنة ١٩٤٣ ، اعتقل الفرنسىون فى  
لبنان قادة النهضة القومية وارسلوهم  
الى السجون . ولم تكن هذه اول مرة  
يفقد فيها قادة لبنان حريتهم وهم  
يدافعون عن حرية وطنهم

كان لبنان في أواخر الجيل الثامن عشر ، مسرحاً لدسائس  
والمؤامرات ، يتسابق أصحاب المطامع من أمراء وحكام  
وطغاة ، أحاطت ولاياتهم بجباله احاطة السوار بالمعصم ،  
الى بسط نفوذهم على هضابه ، واستمالة زعمائه ، بالوعد  
تارة وتارة بالوعيد ، وهو يمانع ويناضل ويكافح ، ينكمش  
ثم يثب ، يكبو ثم ينهض ، وفي كل مرة يتغلب ابناء سكانه  
على غدر الزمان وكيد الانسان !

وقد أنبتت أرض لبنان ، في كل محنة حلت بالجبل الاشم  
زعيماً يقيل الوطن من عثرته ، وبطلا يحمي العشيرة ويدود  
عن الحمى ، بسيفه ودهائه وعزيمته



كان الامير بشير الشهابي ، في تلك الحقبة من تاريخ لبنان ،  
يسعى الى توحيد الصفوف بين أبناء وطنه ، واعادة مجد  
غابر وعزة ضائعة ، فتكالب عليه اعداء لبنان والطامعون  
فيه ، وسعوا لاقصائه عن الحكم ، لانهم كانوا يوجسون  
شراً من اتحاد كلمة اللبنانيين والتفافهم حول زعيم عزيز  
النفس قوى الشكيمة

ووجد الولاة والحكام المجاورون ، وعلى رأسهم احمد  
باشا الجزائر ، صاحب عكاء ، من بعض خصوم الامير  
الشهابي في لبنان ، رغبة في محاربته ، وميلاً الى معاكسته ،  
فتشاوروا معهم وتعاهدوا على القيام بعمل مشترك للقضاء  
عليه

وكان الامير كثير التجول في أنحاء الجبل ، يخرج أحياناً

في موكب من الفرسان المدججين بالسلاح ، وأخيانا برفقة عدد قليل من الاخصاء والمقربين ، فيطوف القرى والحقول ، ويقضى أياما بعيدا عن عاصمته « دير القمر » ومن الاشخاص الذين كان بشير الشهابي يصحبهم معه في روحاته وغدواته ، الشاب « قاسم » وأخته « ووداد » وهما يتيمان انتقذهما والد الامير من الفاقة والجوع ، ورباهما مع أبنائه ، وغمرهما بحبه الابوى ، فأخلصا له الود ، وكانا لابنه من بعده أطوع من البنان أما قصتهما ، فانها تتلخص في أن أباهما ، الفارس يوسف الديراني ، قتل في احدى المعارك دفاعا عن والد الامير بشير ، وقتلت زوجته الى جانبه ، وكانت تحمل الزاد والماء للمقاتلين ، وحق على الاسرة الشهابية أن تقابل ذلك الوفاء بمثله ، فاحتضنت الطفلين ، وأصبح قاسم ووداد فيما بعد رفيقين للامير بشير في مغامراته وحروبه



رسم احمد باشا الجزار ، صاحب عكاء ، خطة للتخلص من الامير بشير الشهابي ، وأعد العدة لتنفيذها تحت ستار الكتمان وفي جنح الظلام وتسقط الفرص فحانت له ، اذ خرج الامير بشير ومعه عشرة فرسان بينهم قاسم ووداد ، في زيارة اصدقاء له على مقربة من بيروت ، وصحب معه ابنه وهو طفل يدعى أيضا « قاسم » فأوفد الجزار مائة من زبائنه ، كمنوا للامير وحاشيته القليلة العدد في مدخل غابة بيروت ، وباتوا ينتظرون عودته للايقاع به

وكان بشير يحب السفر ليلا ، فودع اصدقاءه في المساء وانطلق مع فرسانه في طريق الرجوع الى مقره في الجبال وفجأة ، داهمه رجال الجزار من كل جانب ، يعدون

كالذئاب ويشرعون في وجهه السيوف والرماح  
قاوم الأمير وصحبه مقاومة الأبطال ، ولكن العدد غلب  
الشجاعة ، فقبض أولئك الأشرار على الأمير وأوثقوه ،  
واقادوه مع طفله قاسم وأطلقوا لخيولهم العنان  
أما رفاق الشهابي ، فقد صاح بهم الأمير في وسط  
المعركة : « عودوا إلى الديار وأخبروا القوم بما حدث ! »  
وأرادت ودا أن تلحق بالأمير الأسير فنهاها أخوها قاسم  
وقال : « علينا أن نمهد الطريق لانتقاذه ، لا أن نشل حركتنا  
بيدنا في سجون عكاء ! »

تغلغل الشاب وأخته ومن بقي حيا من رفاق الأمير  
الشهابي في مسالك الجبال الوعرة ، وجعلوا يطوفون القرى  
والمزارع ، يطلعون الناس على ما وقع ، ويستنهضون الهمم ،  
ويستنفرون الرجال الأشداء ، وينادون بوجوب مهاجمة  
عكاء ، واقنحام أسوارها ، وانتقاذ الأمير السجين في قلعتها  
وقام بعض الخونة الذين لا يخلو منهم بلد ، فباعوا  
أنفسهم للجزار على أمل أن يخلفوا الأمير اللبناني في ذست  
الحكم ، مؤثرين السلطة الكاذبة المدعمة بحراب الغريب ،  
على الوفاء لوطنهم والبر بالقرب . وحاول الجزار من  
ناحيته ، وهو الطامع في لبنان ، أن يفكك أوصاله ببذر  
بذور التفرقة بين عناصره ، وإيقاد نار الفتنة بين المسيحيين  
والدروز والمسلمين من أبنائه ، لكي يسهل عليه هضم  
فريسته ، والاجهاز على الشعب الصغير الباسل ، المعتصم  
في جباله

ولكن الله الذي يرعى لبنان بعين عنايته ، كان لسكانه  
عونا على دفع الأذى ، ورفع الضيم . ووجد اللبنانيون  
من بعض العشائر المجاورة تشجيعا على المضي في جهادهم  
ضد العدو الجبار ، ورغبة في شد أزركم إذا ما أدلهم  
الخطب واشتعلت نيران الحرب والنزال  
أما بشير الشهابي وولده قاسم الصغير ، فقد القاهما

الجزار في سجن القلعة بعكاء ، وجعل يفاوض سيد لبنان  
على صلح تعاد بموجبه الى الامير حرّيته ، وتقيد حرية  
البلاد وتنهب خزينتها ويسترق أبناءها

فرفض الامير وقال : « قد ارضى بحيف يحل بي ،  
ولكنني لن ارضى بذل يلحق ببلادي ! »

وفي ذات يوم ، كان الشهابي جالسا في سجنه ، يداعب  
طفله وقد أخذه على ركبتيه ، ويفكر في طريقة للهرب من  
القلعة ، واذا بصوت حنون ، ينبعث من وراء الاسوار ،  
ويرسل في سكون الصباح موالا لبنانيا ، رددته المنشيد  
مرتين على نغمات الناي :

**حبسوك يا سبع جوا قاعة الاظلام**  
**اياك تقول آه يقولوا هالسبع غلبان**  
**اصبر على وعدك والمقدر كان**

**بكره يجيك الفرج وتعود الى لبنان**  
**يا سبع وتجازي الخائنين والظلام !**

أصفي الامير الى الصوت ، وانطلق من بين شفّتيه اسم  
ما أدق انطباقه على مسماه : « وداد ! » . ووثب الطفل  
قاسم عن ركبة أبيه وركض الى النافذة صائحا « قاسم ! »  
عرف الاب صوت الفتاة ، وعرف الابن نغمات الناي ،  
اذ طالما أطربه صديقه قاسم بها ، بين التلال والصخور ،  
وهو يرافقه في العابه ويعلمه ضرب السيف والقاء الجريد .  
وأدرك الامير الاسير أن أبناء وطنه لم يخنعوا للذل ولم  
يرضخوا لقوة الفاشم ، وأنهم على العهد باقون ، وفي سبيل  
انقاذه عاملون . فزاده هذا الشعور يقينا وثباتا « فصبر  
على وعده للبنان وبات ينتظر الفرج » الذي تغنت به وداد  
في موالها الجبلي

وعلم أحمد باشا الجزار من رسله وجواسيسه أن  
الحالة في لبنان لن تعود الى هدوئها السابق ، وأن العصيان

يمتد ويتسع ، وأن المستقبل مفعم بالعواقب الوخيمة ،  
وأن الوسيلة الوحيدة لاجتناب الكوارث هي العدول عن  
سياسة العنف والشدة ، ومعالجة الامور بالحسنى ، لا  
بالقوة والبطش

وبلغه أيضا أن أنصار الأمير يجمعون جموعهم ، وأنهم  
لن يترددوا في مهاجمة عكاء بالرغم من قلة عددهم ووفرة  
الجيوش عند الجزار

فأدرك الطاغية خطأه ، وعمد الى التزلف والخداع ،  
وفتح أبواب القلعة للأمير السجين ، وأطلق سراحه ، وأوفد  
معه كوكبة من الفرسان ترافقه الى مقره في دير القمر

وهلل اللبنانيون وكبروا ، وفرحوا ورقصوا ، وزحفت  
جموعهم للقاء الأمير ، بدل أن تزحف للقتال في سبيل انقاذه  
وعاد الاسد الى عرينه ، ومن حوله الاشبال ترعاه ،  
وراح يقوم المعوج من الامور فيعيد لها جميعا الى نصابها  
ويحيط لبنان بسياج من العزم والقوة ، ويصعد به في مدارج  
المجد والرفعة والسيادة

وظل قاسم وأخته طول حياتهما في خدمة الأمير الكريم ،  
وظل بشير يذكر الفتاة بموالها كلما سنحت له فرصة لذلك ،  
وكان يغنيه بصوته الضخم الاجش :

**حبسوك يا سبع جوا قاعة الاظلام**  
**اياك تقول آه يقولواها لسبع غلبان**

**اصبر على وعدك والمقدر كان**  
**بكره يجيك الفرج وتعود الى لبنان**

وهنا يقف الأمير بشير عن الغناء ، فتم وداد الموال  
بصوتها الرخيم ، وفيه نبرات الحزم والشدة :

**يا سبع وتجازي الخائنين والظلام !**

وكأنها بذلك تريد أن تحمل الأمير على أن يضرب ضربته ،



وينقذ نفسه وبلاده من الخونة الذين تأمروا مع الاجنبى  
عليه وعلى لبنان



صفا الجو بعد ذلك لبشير الشهابى ، وانصرف الى تنظيم  
شئون امارته ، ورفع مكانتها ، وتثبيت دعائم استقلالها  
ودالت دولة الجزار ، وخلفه فى حكم عكاء طاغية آخر  
هو عبد الله باشا ، فتحالف الامير بشير الشهابى مع مصر  
سنة ١٨٣٠ ، ومشى ومعه ابناءؤه ورجاله فى صفوف الجيش  
المصرى عند ما فتح ديار الشام والاناضول ، وابلى اللبنانيون  
فى تلك الحرب البلاء الحسن ، وكانوا للمصريين خير عون  
واخلص حلفاء

تاريخ لبنان حافل بالماسى - وحافل بالمجد !  
شعب صغير تحسده الشعوب الكبيرة على مكانته وعزته!  
جبل رسخت رواسيه فى الارض وشمخت رؤوسه فى  
الفضاء ، كان وما زال وسوف يظل معقلا للاحرار وموئلا  
للفازعين الاخيار !



# فهرس

## صفحة

١٠	.....	يحيا الوطن
١٩	.....	ابن البواب
٢٧	.....	شم النسيم في المعادى
٣٧	.....	علم .. وقلعة
٤٣	.....	احتلال وجلاء
٤٧	.....	أربع رؤوس
٥٥	.....	مصرى فى حرب البوير
٦٣	.....	عمر المصرى
٧١	.....	فى الكنيسة المعلقة
٧٩	.....	مصر الظافرة
٩١	.....	نساء القاهرة
١٠١	.....	فاجعة فى مهرجان
١٠٧	.....	القميص الابيض
١١٥	.....	الحرية الغالية
١٢٧	.....	مصرية تنقذ السودان
١٣٧	.....	عثمان دقنه
١٤٧	.....	السيف مفتاح الفرج
١٥٧	.....	جبل القسطل
١٦٥	.....	الرغيف الأحمر
١٧١	.....	حنوا السيوف
١٧٧	.....	مريم .. واسماعيل
١٨٥	.....	موال لبنانى



## وكلاء مجلات دار الهلال

**سوريا ولبنان :** شركة فرج الله للمطبوعات - مركزها الرئيسي بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو في بيروت ( تليفون ٧٨ - ١٧ ) صندوق بريد ١٠١٢ - أو باحدى وكالاتها في الجهات الأخرى . ( الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى نولى تسليمها لحضرات المشتركين )

**العراق :** السيد محمود حلمى - صاحب المكتبة العصرية - بغداد

**اللاذقية :** السيد نخلة سكاف

**مكة المكرمة :** السيد هاشم بن على نحاس - ص.ب. ٩٧

**البحرين والخليج الفارسي :** السيد مؤيد احمد المؤيد - مكتبة المؤيد - البحرين

**برقصة :** السيد محمد على بوقعيقص - بنغازى - ص.ب. ١٠٤

**البرازيل :** Snr Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.

**ساحل الذهب :** The Queensway Stores, P.O. Box 400, Accra, Gold Coast, B.W.A.

**جسريا :** Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

**جسلا : مكتب توزيع المطبوعات العربية**

Arabic Publications Distribution Bureau  
7, Bishopsthorpe Road, Sydenham,  
London S.E. 26, England.



## هذا الكتاب

تحتفل مصر هذا الشهر بعيدين كريمين :  
عيد الجمهورية ، وعيد الحرية . . وليس أمتع  
للفكر والنفس ، ولا أشوق للقلب والروح من  
قراءة قصص السيادة والاستقلال ، والاطلاع  
على أمثلة البطولة الوطنية

وفي هذا الكتاب أقاصيص شائقة بقلم  
الكاتب الكبير الاستاذ حبيب جاماتي . وقد  
استوحاها من وثبات الشعوب والأبطال في  
جهادهم القومي ، وصرايحهم الوطني من أجل  
سيادة الأمة ، وحرية المواطن

ولهذا فاننا نهدي هذا الكتاب النفيس الى  
كل مجاهد في سبيل حرية قومه ، واستقلال  
بلاده ، وكرامة وطنه ، والى كل مظلوم في  
الظالم عليه الخناق ، أو رزح تحت أثقال  
الاستعمار ، فنهض يدفع عنه هذه الأثقال  
ويخلع نير العبودية والذل والاستعباد ، ويهتف  
الى الثورة على الظالمين ، ويحطم قيود  
المستبدين ، ويفلت من عقاب المستعبد  
ويبذل في سبيل حريته وشرف وطنه و  
قومه أغلى ما يملك من نفس ومال

